محمود حسانين

ظل الشيخ
العائد من بلاد النور

رواية

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2024م

تصدير

«كما اعتبر المؤرخ كتابة التاريخ رسالة وطنية، تميز المؤرخ بميزة لعله انفرد بها بين المؤرخين، وهو عنايته بتحديد المكان والموقع، إلى جانب أحداث الزمان ووقائع التاريخ.»

«عبد الرحمن الرافعي»

الفصل الأول

-1-
رحلة الألف ميل

اركب النيل ما استطعت ففيه
راحة للفتى وغاية بغية
كم تفرجت حين سافرت فيه
في بلاد وكم ظفرت بمنية

على صفحات النيل يتهادى مركبٌ في طريقه إلى جنوب مصر، يحمل بعض الرجال من أصحاب العمائم، يتبادلون الحديث وقد كانت المجادلات جلية من طريقة حديثهم، وفي ركن بعيد عنهم جلس شيخ معمم مثلهم، تظهر عليه المهابة رغم صغر سنه، يقلّب بصره في السماء بصمت مطبق، ورغم وصول هسيس لحديثهم إليه، فإنه لم يكن ينتبه إلى ما يقولون، فداخل عقله كانت تعصف به رياح عاتية، ما بين سفره إلى مجهول، وما يعرضه عليه فكره من أحداث، أدّت به إلى تلك الرحلة، يتمتم بينه وبين نفسه من حين إلى آخر:

- هل كُتب عليك يا رفاعة الترحال والغربة عن وطنك كل حين، هل أصبح هذا مصيرك الأبدي؟ لقد وهبت نفسك لأمجاد تتمناها لوطنك؟ كيف إذا سيذكر التاريخ لك اجتهادك وسعيك كما أخبرك شيخك؟

يصمت برهة وهو يقلب بصره بين الجالسين ومياه النيل، ثم يرفع عينيه إلى السماء مرة أخرى ويكمل تمتمته وهو يتنهّد:

- هل يضيع كل طموحي ومسعاي إلى تحقيق هدفي.

يتذكر تلك الرحلة التي قام بها والده للبحث عن عمل، وفرقت بينه وبين مسقط رأسه «طهطا» كانت أول رحلة ولكنها إجبارية، من مسقط رأسه إلى «منشاة النيده» بلدة بعض أقربائه، ومنها انتقل إلى «قنا» لتبحث الأسرة عن مصدر للعيش، ثم إلى «فرشوط» التي كانت لا توجد بين جنباتها راحة، من زمن فاجعة «شيخ العرب همام».

يسرح بفكره متسائلًا كيف يضيع بين رحلات غربته ذلك الطموح، الذي غرسه فيه خاله الشيخ «محمد الأنصاري» وهو صغير، وبذرة السعي التي نمّاها داخله شيخه «حسن العطار» حتى

تشجيع خاله له ليصبح عالماً؟
هل ينتشله القدر من وحل الفقر والعبودية، التي فرضتها الحياة عليه وعلى أسرته، بعدما كانت من أعيان بلدته، فدارت عليها رحى الأيام لتصير إلى فقر مدقع بعد غناها سنين؟ ليصير في يوم ما إلى عالم جليل تعلّم في بلاد النور، ويشهد له القاصي والداني ويعلو شأنه حتى مراتب العلا، كي يعود به القدر إلى رحلة نحو أقصى الجنوب، عقاباً له على شيء لم يقترفه ليصبح منفياً.

** **

جلس الشيخ «بدوي رافع الطهطاوي» أمام بيته بصبر المؤمن يدعو لزوجته التي تعاني من مخاض الوضع، وما إن أشرق ضوء الشمس بصباح جديد حتى جاءته البشرى بإنجاب زوجته طفلاً، فدخل السرور إلى صدر الحاج بدوي الذي وزع بعض الهبات على منْ صادفه من الفقراء، وتوجه إلى مسجد جدّه «أبا القاسم الطهطاوي» ليصلي لله ركعتي شكر، وهناك وجد الشيخ «فراج الأنصاري» خال المولود جالساً يتلو القرآن، فبشّره بخبر قدوم المولود، وبفرحة عارمة هنأه الشيخ فراج الأنصاري قائلًا:
- ألف مبروك يا شيخ بدوي، جعله الله لك ذرية صالحة وأنبته نباتًا حسنًا.
وبعدما خرجا من المسجد قام معه بتوزيع بعض الهبات للفقراء، ابتهاجاً بسلامة أخته وطفلها، والتف حولهم القوم يهنئون الحاج بدوي وأخذه الشيخ فراج من يده هو وبعض الرجال من أصدقائهم، ليصلوا ركعات شكر لله بالمسجد، وفي المساء أقام الحاج بدوي في منزله الولائم، احتفالًا بقدوم طفله وأثناء مجلسهم قال أحدهم:
- ماذا ستسميه يا شيخ بدوي.؟
فنظر إلى القوم حوله وهو يقول:
- سأسميه رفاعة ليرتفع شأنه ويكون ذا حظٍ عظيم.
وخرج الحلم من قلب مدينة طهطا، إحدى مدن «مديرية جرجا» بصعيد مصر، ونبض بين جنباتها هذا الحلم الذي كان يتمناه كل مصري، ومن بين أحشاء الأم التي لم تعد تطيق صبراً، بدأت محاولاته الأولى للخروج إلى النور، وكان صوته يصدح منذ بزوغ الفجر كالديكة، ليعم أرجاء طهطا وكأنه يريد أن يعلن عن قدومه ليصل إلى أرجاء المحروسة، لم يكن الأهل يعلمون بما زرعه الله في قلب وعقل هذا الطفل، الذي كان يشاكس بيديه الصغيرتين أطياف الخيال، كأنه يعلن تمرده على رتابة كل شيء حوله، ومرّت الأيام سريعًا بالمولود، الذي لم يكن يستسلم

بسهوله لرقدته على الفراش، ولا يهدأ إلا عندما تحمله الأيدي وتريحه الهدهدة من ذراع والدته، ويبتسم ويستجيب لمناوشات من حوله؛ حتى عندما تعلَّم الحبوَ، ظل يروح ويغدو ولا يترك مكانًا حوله إلا وجاب فيه بأربعته، كأنه يريد اكتشاف العالم من حوله مبكراً، وكلّما مر عليه عام ازداد فطنة لما يجري حوله، ليلفت الانتباه إليه.

تربى الطفل وترعرع في كنف عائلتين من أشراف البلدة، حيث كانت طهطا تضم منذ زمن عائلات من نسل الأشراف وأخرى من كبار الأعيان، والتي تنتسب بالمصاهرة إلى الأشراف أيضًا؛ فمدينة طهطا تضم منذ القدم أعرق عائلات الصعيد، فوالده «بدوي بن على بن محمد بن علي بن رافع ابن أبي القاسم الطهطاوي» نسبه يرتقي إلى آل البيت، والأم من نسب عريق وشريف أيضاً وعائلتها تكنى بالأنصاري نسبه إلى «الأنصار الخزرج رضي الله عنهم» أصحاب «رسول الله صلي الله عليه وسلم».

وعندما بلغ الطفل سن السادسة، أدخله والده الكُتَّاب ليتعلم الكتابة ويحفظ كلام الله على عادة أهل الصعيد، فقد كانت أمنية والده أن يصير كأخواله من رجال العلم بالأزهر الشريف، وكثيرًا ما جلس معه ليحكي له عن أخواله وعن جده الأكبر أبي القاسم الطهطاوي، ومنذ الصغر كان رفاعة حريصًا على المعرفة، حتى أنه في أحد الأيام سأل رفاعة أباه قائلًا:

- أبي، من هو سيدي أبو القاسم الطهطاوي.؟

فنظر إليه والده وهو يقول:

- سيدي أبو القاسم الطهطاوي كان من فقهاء العلم في زمنه، يرتقي نسبه مروراً بالأئمة جعفر الصادق، ومحمد الباقر، وزين العابدين، إلى الحسين بن على بن أبي طالب، هو وأولاده حريز أبي القاسم، ويحيى أبي القاسم، وعلى البصير أبي القاسم الطهطاوي، كلهم يرتقون بالنسب الشريف أباً وأماً، وبعد موته صار الجميع يقدرونه كوليٍّ من أولياء الله الصالحين، وهو جدّك الأكبر.

فنظر له رفاعة بدهشه وهو يقول:

- هو جدي الكبير...! وهل هو من بنى المسجد الذي في البلدة؟

ابتسم والده وهو يقول:

- لا لقد بنى أولاده هذا المسجد لمقامه العالي، وصار علماً ومزاراً في طهطا، يتوافد إليه الجميع من البلاد القريبة والبعيدة، ليزوروا مسجد القطب الرباني أبي القاسم الطهطاوي والذي يمتد نسبه إلى آل بيت رسول الله.

نظر له رفاعة بدهشة وهو يقول:
- وهل سميت طهطا بهذا الاسم على اسم جدي أبا القاسم الطهطاوي؟
فابتسم والده وهو يجيبه:
- لا يا رفاعة، فطهطا يقال إنها سميت بهذا الاسم على اسم أميرة من أميرات مصر القديمة، وسيدي أبو القاسم لُقب بالطهطاوي نسبة إلى بلدته، وصار لقباً، لتتفرع منه شجرة عائلات الأحفاد.
نظر إليه رفاعة وهو يقول:
- وسيدي أبو القاسم له عائلات كثيرة؟
ابتسم والده وهو يربت عليه قائلًا:
- طبعاً يا رفاعة، يوجد الكثير منهم فالأشراف متفرقون في البلاد، والكثير منهم ينتهي نسبهم إليه، فشهرة القطب الرباني أبي القاسم الطهطاوي، لا تخفى على أحد.
وما إن انتهى رفاعة من أسئلته، حتى أخذه والده من يده، ونهضا ليذهبا إلى المسجد ليحضرا درس الفقه الذي يلقيه خال رفاعة الشيخ فراج الأنصاري، الذي كان يعمل إماماً للمسجد، وكان الحاج بدوي محبًا لأهل العلم والدين ويلازمهم، ولا يترك حلقة للذكر ولا درساً للعلم إلا ويحضره، وكان يصطحب رفاعة معه أملًا في أن يصبح شيخاً يحيي سيرة جدّه الأكبر أبا القاسم، الذي رفع شأن طهطا تلك المدينة التي تحدّها من الشرق جبال يفصلها نهر النيل، وإن كانت بعض تلك الجبال عبرت حباتها عبر النيل لترمي بلون اليابسة الشاحبة على أطراف البلدة، أما من الغرب فتحوطها الأراضي الزراعية الخصبة لتحجب اللون الأصفر الجبلي الذي يشاكس خضرة الزروع، ومن الجنوب يابسة تسكنها القبائل والعائلات، تمتد على طول نهر على أحد جوانبه طرق ممهّدة، وعلى الجانب الآخر مزارع الحقول، وكانت القرى متناثرة بين الغرب والجنوب، وفي المدينة كانت الشوارع ضيقة بعض الشيء وخصوصاً المتعرجة بين البيوت، وعندما يصل الفرد إلى قلب المدينة، يجد مساحة من الأرض تعلوا عن باقي المدينة، حيث توجد «قيسارية» تضم بين جنباتها الصنّاع من النحّاسين والنّجارين، والكثير من محلات البقالين وبائعي الغلال والعطارين، وكانت أرض تلك القيسارية تمتاز بمنسوبها عن باقي البلدة، وتحوطها مساجد ومقامات الأولياء، وبجوارها الساحات الواسعة لبيوت الأعيان وساحة كبيرة للأشراف، وفي عمق المدينة جنوباً وغرباً تصطف بيوت صغيرة مبنية من الطين، مسقوفة بأفلاق خشبية وسعف النخيل، وبها أحواش صغيرة محوطة بالبوص، ترعى فيها بعض الطيور

والأغنام والقليل من المواشي، وكانت توجد بطهطا ثلاثة آبار كبيرة للمياه، يستخدمها أهل البلدة لمياه الشرب، متوزعة على المناطق المأهولة بالسكان، واحداً بجوار مسجد أبي القاسم، يطلقون عليه سبيل الأولياء لما يحوطه من مساجد أولياء الله، وآخر بالقرب من المقابر في ساحة شاسعة، والثالث غرب البلد حيث يقع في مكان منحدر ناحية ترعة كبيرة، يطلقون عليه اسم «الفخرانية» وأهل تلك المنطقة يعملون في صناعة الفخار والطوب اللبن، الذي يصنعونه من رماد الأفران البلدي الملحقة بالمنازل، حيث يخرج بعضهم ويطوف على البيوت ليجمع ذلك الرماد، ويحمل «قفة وطورية» من الحديد رأسها مدبب ومقبضها من الخشب، يضعهما على حمار ويجوب طرقات البلدة ليجمع رماد الأفران، وكانوا يستعينون بمياه البئر أيضاً في صنعتهم.

** **

يتنهد رفاعة وهو يتقلب على ظهر المركب، كان يحاول طرد الهواجس بلا جدوى، تعلق بصره بنجمة تلمع في السماء وهو يتذكر أسرته التي يفخر دائماً بنسبها الشريف، كانت عائلة والده منذ زمن من ذوى المال الكثير، فقد كان للأشراف في ذلك العصر امتيازات مالية، منها أراضٍ تسمى «بالرزقة» والتي كانت لا تدفع عنها ضرائب، وبعضهم له جزء من «الإلزامات» التي يمتلكها الأغنياء والإقطاعيون، حتى جاء أمر من والي مصر الجديد حينها «محمد علي باشا» بنزع ملكية الأراضي والإلزامات من الأعيان والأشراف وضمها إلى الدولة، وحاق بوالده ما حاق بكل أعيان وأشراف القاهرة والصعيد على وجه الخصوص، وصار والده بين يوم وليلة لا يملك قيراط أرض، وتوالت على الأسرة المعاناة، بعدما فرغت المؤونة من البيت، وبدأ يضيق بهم الحال، وسارت بهم الأيام يوماً بعد يوم إلى انحدار معيشي، ولم يكن يوجد معين للفقراء إلا العمل في أراضي الإقطاعيين، ولم يكن أجرهم يوفر لهم ما يسدّون به احتياجات الأسرة، وأغلبهم كانوا يستعينون بالإعانات من بعض الميسورين من أهل البلدة، ولم يكن والده يقبل العمل بالسخرة، ولا المساعدة من أي أحد، حتى من أهل زوجته، الذين كانوا يمتلكون بعض التجارة، تعينهم على الحياة بعدما نزع منهم أيضاً الوالي الأرض، وعندما بلغ رفاعة سن العاشرة، أدرك بفطنته حجم المعاناة، ولكن لم يكن في مقدوره فعل شيء، ومرّت عليه الأيام والشهور، وظهر على الأسرة ضيق الحال، وبدأت أول تغريبة له عن مسقط رأسه، عندما قرّر الأب أن يترك البلدة، ليذهب إلى أحد أقربائه في بلدة «منشاة النيدة» التابعة لزمام المديرية،

بعدما اقترح أحد الأقارب على الأب أن يترك البلد ويأتي إلى بلدة عائلة امرأته لكي يجد فيها بعض سبل العيش، خصوصاً أنه لا يوجد من يعرفه غير أهل زوجته والقليل جداً من أهل البلدة، ولهذا لن يجد حرجاً من العمل في أي مهنة، وعندما ذهبوا، كان رفاعة يتطلع إلى العالم الجديد من حوله بعين صبي، ولم تكن تلك البقاع تختلف في نظره عن طهطا، فمبانيها وفقر أهلها متماثل، ولكنه كان يرى في طهطا أعظم اختلاف بالنسبة لصبي مثله، ففي طهطا، المرعى الذي تربى في جنباته مع أقرانه، وبين مبانيها الصغيرة كانت تسكن الضحكات البريئة، وعلى ترابها، خطاه هو ورفاق طفولته في أوقات اللهو، يتمتم وهو ينظر في ظلمة الليل:

- نعم في طهطا أجمل اختلاف، والذي لا يوجد له تطابق في أي مكان، فلن أنسى ذكريات اللهو في مولْد جدي القطب الرباني أبي القاسم الطهطاوي.

ترسم الخيالات بيوت أعيانها بتلك الجدران العالية، التي كانت تسكن شقوقها الحكايات والمسامرات للكبراء من أهلها.

فيتمتم:

- نعم لم تختلف طهطا كثيراً عن بقية مدن الصعيد، في تشابه شكل البيوت الصغيرة والتجارة البسيطة وشقاء أهلها.

تعاوده صور الماضي وهو يسترجع بيوت طهطا التي كان أغلبها مبنياً من الطين، وترتكن إلى بعضها البعض في توافق عجيب كأنها بيت واحد، يملؤه الخير والبركة الممزوجين بخيط من الحب والتآخي بين سائر أهله تجاراً وأعياناً.

كانت لا تكفي الفلاحين ما تلقي به الأرض إليهم، لعدم قدرتهم على رعايتها والاهتمام بها، فكان أغلب عملهم بالسخرة في أراضي الإقطاعيين التي كانت تقضي على مجهودهم وأغلب ساعات يومهم، فلا يجدون الوقت لرعاية أرضهم التي يخْرج نباتها هزيلاً بالكاد يكفي ما يحتاجونه، حتى التجار لم يكونوا كتجار المحروسة، فأغلب تجارتهم كانت بسيطة أيضاً، لا تتعدى تجارة الحبوب والعطارة، وأصحاب الحرف من نحّاسين ونجّارين، عملهم لا يدرّ عليهم غير ما يكفي قوت يومهم، يقترب منه أحد رفاقه وهو يقول:

- ماذا بك يا شيخ رفاعة، تتركنا وتجلس وحدك؟

يبتسم وهو يقول له:

- لا شيء يا شيخ محمد، ولكنه الفكر أخذني إلى طهطا وما بها.

يجلس بجواره الشيخ محمد وهو يقول:

- وما الاختلاف في طهطا عن بقية بلاد الله؟

يتنهد وهو يجيبه:

- يكفي أن فيها أعظم اختلاف عن بقية البلدان المجاورة، ففيها يوجد عدد من أولياء الله الصالحين، الذين شُيدت لهم مساجد صارت علامات يشهد لها التاريخ، ففي طهطا ترك تاريخ الأولياء أحد قواعده بها، ليصير يوماً بعد يوم بناءً عظيماً من العلماء والفقهاء.

يبتسم الشيخ محمد وهو يقول:

- أولياء يا شيخ رفاعة، هل تعتقد في الأولياء والتمسح بهم كالعامة؟

نظر إليه رفاعة وهو يبتسم قائلاً:

- يا شيخ محمد إن أولياء الله بريؤون من أفعال العامة، ولا ننكر فضل علمهم.

يبتسم الشيخ محمد وهو يقول:

- تقول إن في طهطا الكثير من الأولياء هل لهم كلهم مساجد؟

يبتسم رفاعة وهو يقول:

- نعم لأغلبهم مساجد كما فيها أكثر من مقام لولي، ففي قلبها يقبع مسجد سيدي أبي القاسم الطهطاوي جدي الكبير قائدهم، ومسجد الشيخ ابن رضي ومسجد الشيخ البريدي، وجنوبها مسجد الشيخ نصير ومسجد الست المتعافين، وشمالها ضريح الست المنصورين ومسجد الشيخ الخوصي، وفي شرقها يوجد مسجد الشيخ العتيق ومسجد أبو الحسن.

نظر إليه الشيخ محمد بدهشة وهو يقول:

-عندك حق يا شيخ رفاعة كل هؤلاء، جعلوا لها بعض التميز عن بقية البلدان المجاورة بالتأكيد، فقلّما وُجدت كل تلك المقامات للأولياء في بلدة واحدة.

ابتسم رفاعة وهو يقول:

- هذا غير المقامات التي ليس لها مساجد، ويوجد بطهطا الكثير من حفظة القرآن الكريم والشيوخ والفقهاء، الذين درسوا على أيادي علماء الدين العظماء في الأزهر الشريف.

نظر له الشيخ محمد في حيرة من أمره، فقد كانت الذكريات والحنين يجرفانه بقوة، فاستأذن منه حتى لا يقطع عليه لحظات خلوته، وتركه في ملكوت الفكر.

** **

انبلج الصباح عندما رست المركب التي يستقلها رفاعة على شط إحدى القرى، وهمّ كل من فيها

بالنزول، فاستقبلهم بعض أصحاب البيوت الصغيرة على ضفاف النيل بترحاب واستضافوهم، وجلس رفاعة ومن معه ليستريحوا من عناء الرحلة التي كانت في بدايتها، واستضافهم القوم بكرم ضيافة أهل الصعيد، وقدموا لهم الأكل والشراب وبعض ثمار الفاكهة، وعندما انتهوا من المأكل والمشرب، جلس رفاعة وهو يرتكن إلى نخلة تلقي بظلها على شط النيل، يتذكر تلك الرحلة مع أهله، والتي صارت أول دروس الحياة له، ورغم شظف العيش للأسرة، أصر والده على إلحاقه بالكُتَّاب ليتعلم ويصبح ذات يوم من رجالات الأزهر كأخواله، وذاق الطفل مرارة العوز عندما مرض والده، فقرّر ترك الكُتَّاب وما يدرس من القرآن دون علم أهله، وبحث عن عمل ليساعد أسرته التي شق عليها العيش، حتى أن الأم لم تكد تجد ما تسدّ به رمق الابن والزوج الراقد في فراشه، الذي لا يقوى على النهوض للعمل، وبدأت رحلة المعاناة للطفل الذي دُلّل منذ مولده، ولم يكن يعرف معنى العمل ولا مشقة الحياة، ودارت الدنيا بأهل بيت أبيه، فكان يتسلل في خفية من أعين أمه وأبيه، ويذهب إلى الحقول ليعمل بها، حتى إن أصحاب إحدى تلك الأراضي، قد أشفق عليه من مشقة العمل وهو ما يزال صغيراً، وقرّر أن يعفيه من العمل وأن يجلسه مع وأولاده في منزله، لكي يسامر أولاده ويلعب معهم ويعطيه عطية آخر اليوم كأنه أجر عمله في الأرض، ولكن الطفل رفض ذلك بشدة وأخبر الرجل بكل لطف، بأنه لا يقبل إحساناً ولا صدقة ويريد أن يكسب أجره من إنجازه في العمل وعرق جبينه، واستجاب الرجل لرغبته بعدما أُعجب بقوة شخصيته وإصراره على رفض المساعدة بأي شكل، ولكنه قرّر أن يخفف عنه العمل إلى النصف ويعطيه الأجر كاملًا، مع أن الطفل رفض ذلك، لكن الرجل أخبره بأنه لا يريد منه أكثر من نصف العمل، وسيعطيه الأجر كاملًا نظير شهامته، كمكافأة له على شجاعته وحبه لمساعدة أسرته، واستمر الحال بالطفل الذي لم يبلغ سن الشقاء في العمل، وكان عندما يعود إلى المنزل يضع أجرة عمله فوق غطاء «الزير»، وكانت والدته تجد المال كل يوم فيتملكها العجب، وفي يوم أخبرت زوجها، فقال لها في دهشة:

- علّها نفحة ورزق من الله.. لعلّ البيت به رصد، إذ لم يدخل إلى البيت أحد ليضع لنا النقود.

وبالتالي ذهب تفكيرهما إلى احتمال وجود حارس أمين لرصد ما، هو من يضع لهما تلك النقود، لأن هذا الاعتقاد كان سائداً لدى العامة في ذلك الوقت، وذات يوم اكتشفت والدته ما يخفيه الابن، فقد لاحظت أنه يأتي في كثير من الأحيان مرهقاً وثيابه غير نظيفة، وفي بعض الأحيان يعود متأخراً عن موعد الكُتَّاب الذي يحفظ فيه القرآن، فواجهته وصارحها رفاعة بما يفعل قائلًا:

- سأخبرك ولكن شريطة ألا تخبري والدي.

وأخبرها بما بدأه من عمل وموقف الرجل معه، ورفضه للإحسان وإصراره على العمل كباقي الفلاحين.

وحزنت الأم على ابنها، ووعدته قائلة:

- لن أخبر أباك بما تفعل، ولكنّي أخشى عليك ضياع العلم وحفظ القرآن.

فطمأنها رفاعة أنه سيراجع ما يفوته من حفظ للقرآن، واستمر على هذا الحال، وفي أحد الأيام عند عودته في نفس موعده، أخبرته أن أباه يريده، فتوجه رفاعة من فوره إلى والده، الذي نظر إليه وهو ممدّد على فراشه واهن الجسد من المرض، وطلب منه والده أن يتلو عليه ما حفظه من القرآن، لكي يراجع معه بعض ما حفظه في الكُتَّاب، وكانت المفاجأة التي ألجمت رفاعة فأخذ يتلعثم وتخرج منه الكلمات متقطعة، ولم يستطع إكمال أي من السور التي أمره والده أن يسمعها له، وصاح به الأب في استنكار:

- كيف لم تحفظ تلك السور، وقد كنت تسبق الجميع في الكُتَّاب؟

وأخذ يسعل وهو يكمل:

-غدًا لا بد أن تحضر الشيخ عامر معك.

يتذكر يومها عندما ذهب إلى شيخ الكُتَّاب، وتوسّل إليه ألا يخبر والده بتغيبه عن الكُتَّاب، ولكن الشيخ بعدما علم بما يفعله رفاعة ليساعد أسرته، رفق به قائلًا:

- يا رفاعة الصدق خير منجىً، وعليك أن تكمل شجاعتك وتخبر والدك.

ولكن رفاعة ارتعد من الخوف وهو يقول:

- أخشى إن أخبرته أن يزداد عليه المرض، فكيف يا شيخ عامر أخبره وهو الذي يريد لي أن أكون شيخاً بالأزهر مثل أخوالي المشايخ الكبار.

ابتسم الشيخ عامر وهو يربت على كتف رفاعة:

- اطمئن سوف أساعدك وأقف معك عند والدك.

وفي مساء ذلك اليوم ذهب الشيخ معه إلى البيت، وجلس على انفراد بوالد رفاعة وأخبره بشجاعة ابنه، قائلًا:

- يا حاج بدوي ابنك هذا رجل يسبق سنّه، ويحق لك الافتخار به، فقد بدأ العمل مبكراً لنخوة الرجولة التي يرتدي ثوبها مبكراً.

نظر إليه الحاج بدوي بدهشة واستنكار وهو يقول وقد وهن صوته:

- رفاعة ابني يعمل في السخرة، لا يا شيخ عامر رفاعة خلق ليكون شيخ عمود في الأزهر لا

عاملاً أجيراً.

ربّت عليه الشيخ عامر وهو يقول:

- استرح يا حاج بدوي فوالله ليكون رفاعة كما أردت، فهو ولد مجتهد ولا أظن أن ما فعله سيقلل من عزمه واجتهاده.

ثم نظر إلى رفاعة الذي دخل عليهم يحمل كوب شاي للشيخ، وقال له:

- أليس كذلك يا رفاعة؟

صاح رفاعة بصوته ليؤكد على كلام الشيخ عامر:

- أي والله يا شيخ عامر سأحفظ السور التي ستلزمني بها، وأراجعها عليك في أيام العطلة.

سعل والده وهو يصيح بوهن:

- لا يا رفاعة لن تعمل بعد اليوم، بل ستنتبه إلى دروسك وحفظ القرآن، وأنا من سيعمل فقد تعافيت.

وقرّر الأب أن ينهض من مرضه ويباشر البحث عن عمل، ويكتفي ابنه بالحفظ في الكُتَّاب حتى يتمكن من الذهاب إلى الأزهر لتحصيل العلم، ويومها قرّر الأب أن يذهب بأسرته إلى مدينة «قنا» جنوب الصعيد، وهناك وجد لنفسه عملاً على «فراشة» صغيرة في أحد الأسواق يبيع عليها ما يرزقه الله، ولكن الحياة كانت لهم بالمرصاد، فضاق الحال بهم لكثرة الإتاوات التي تفرض عليهم، مع مرور بعض دوريات رجال الحاكم بالسوق، فترك الرجل قنا ورحل متوغلا في الجنوب حتى وصل بأهل بيته إلى بلدة «فرشوط»، وهناك توسط له أهل الخير ليعمل في حديقة أحد أعيان البلدة، ولكن حتى تلك الحياة لم يطقها الأب، فكيف لرجل كان ذا جاه وعزوة ومن نسل الأشراف أن يكون أجيراً في عمل قد يقلل من إنسانيته وهيبته، ليقرّر العودة مرة أخرى إلى بلدته طهطا، وهناك وجد الطفل المفاجأة التي صارت طوق النجاة له، فقد استقبلهم الشيخ محمد الأنصاري أحد أخواله، والذي أتى من المحروسة لزيارة البلدة في ذلك الوقت، وعندما علم بأخبارهم وما جرى لهم، قرّر اصطحاب رفاعة معه إلى القاهرة ليكون في معيته، ويلحقه بالأزهر ليكمل تعليمه.

** ** **

-2-

الخال

بينما رفاعة يتذكر وهو ممدد ينظر إلى السماء، تناهى إلى سمعه صوت قائد المركب وهو يقول:

- سوف نستعد للرحيل الآن يا سادة.

فأسرع كل واحد إلى الصعود للمركب، وما هي إلا ساعة حتى ترك المركب ضفاف القرية، وجلس رفاعة مكانه وهو يتنهد وقد علت تنهيدته، وتذكّر مواقف خاله الشيخ محمد الأنصاري الذي كان دائماً يتباهى به، وتذكّر قول «رسول الله صلى الله عليه وسلّم، في خاله سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه: (هذا خالي فليُرِني امرُؤٌ خالَه).

كان الشيخ محمد الأنصاري من رجال الأزهر الشريف الذين تعلموا فيه الفقه والحديث وحفظ القرآن، وبعد ذلك صار شيخ عمود به، وقد تزوج من بلده طهطا وسكن بعد زواجه بالمحروسة منذ زمن، وأنجب من زوجته ابنته الوحيدة «كريمة» والتي كان يرعاها بكل اهتمام فقد كانت قرة عينه، وعندما صارت في سن السادسة من العمر، أتى لها بمعلمة لتحفظ القرآن.

حرص الخال الزيارة الدورية لمسقط رأسه طهطا، فيعقد في مسجد سيدي أبي القاسم الطهطاوي دروس الفقه والحديث، وكان يُعجب بفطنة ابن أخته رفاعة، ويجلس إليه ليعلمه من علوم الأزهر الشريف، فيعطيه دروسًا في النحو والصرف، وبعض علوم الفقه والحديث التي تناسب سنه، وكان في بعض الأحيان يأتيه ببعض الكتب ليحفظ منها، وفي آخر زياراته عندما علم بحال أخته وزوجها وابنها، اتخذ قراره بأن يكون رفاعة معه ليتعلم بالأزهر الشريف على يد شيوخه، علّه يصبح في يوم ما أحد شيوخه، وقد يكون له عمود يدرّس فيه للطلبة كما هي أمنية زوج أخته الحاج بدوي، وبالفعل قرّر أن يأخذه معه لتبدأ ثاني رحلة لرفاعة بعيداً عن مسقط رأسه، واستأذن الشيخ محمد الأنصاري أخته وزوجها في أن يرافقه رفاعة إلى القاهرة، وقتها تملّكهما التردد لعدم تخيل فراق ابنهما الوحيد لهم، ولصعوبة الحياة التي قد تفرضها عليه الغربة، ولكن الشيخ محمد الأنصاري طمأنهما عليه، وأخبرهما بأن رفاعة سيكون في رعايته كما يرعى ابنته، فوافقا، ولكن أخته التي تملكها القلق قالت له في حزن:

- يا شيخ محمد.. رفاعة أمانة عندك فحافظ عليه.

ابتسم لها وهو يقول:

- لا تخشي على رفاعة فهو ابني، وسوف يعود إليكم شيخاً كبيراً.

أخذت الدموع تنهال من عينيها وهي تترجى أخاها:

- أستحلفك بالله.. أن تأتي به بين الحين والحين لأراه، فأنا لا أطيق فراقه.
ربت أخوها على كتفها وهو يطمئنها:
- سوف آتيك به كلما زرت طهطا.
ثم نظر إلى زوج أخته الحاج بدوي، الذي كان يرقد على فراش المرض، وربت على يديه وهو يقول:
- اطمئن أنت أيضًا يا حاج بدوي ولا تخش على رفاعة، فهو ابني كما هو ابنك.
تمتم الحاج بدوي وقد تملكه الوهن، فنظر الفتى رفاعة إلى خاله وهو يقول:
- متى ستأخذني إلى المحروسة يا خالي، لقد اشتقت إلى الالتحاق بالأزهر وأريد أن أرى زوجة خالي وبنت خالي كريمة.
ابتسم الشيخ محمد الأنصاري وهو يربت على كتف الفتى وقال له:
- غدًا صباحًا بإذن الله نبدأ في السفر إلى المحروسة يا رفاعة.

** **

كان رفاعة ينظر إلى المركب وهو يتهادى فوق الماء، التي تجري عكس اتجاه سير رحلتهم، وتذكر ذلك المركب الذي استقله مع خاله في رحلته إلى القاهرة، كانت المياه حينها تدفعه وتسير معه إلى حلمه، وعندما وصلوا ووطئت قدماه أرض القاهرة، أمسك خاله بيده ليتجه به ناحية موقف «للركايب» ورَكَبَ مع خاله فوق ظهر حمار استأجره من مكاري، ليسهل عليهم السير لطول المسافة داخل دروب القاهرة، وكانوا يعبرون الشوارع الواسعة، ورفاعة ينظر إلى المباني والمحلات والشوارع مبهوراً بما يرى، حتى وصلا إلى حيث يسكن خاله، فهبطا وحمل رفاعة متاعه، ودخلا بيت خاله، وعندما طرق خاله الباب كانت فرحة كريمة بقدوم ابن عمتها كبيرة، وكان استقبال زوجة خاله مملوءاً بالود فقد رحّبت به، وقال لها زوجها:
- هذا رفاعة ابن أختي، جئت به إلى المحروسة ليلتحق بالأزهر الشريف.
ربتت زوجته على كتف رفاعة وهي تقول:
- مرحباً بك يا رفاعة في المحروسة إن شاء الله ستكون مسروراً بيننا.
شكرها رفاعة بأدب، لتقطع كريمة الحديث قائلة:
- حمدا لله على سلامتك يا أبي.
ثم نظرت إلى رفاعة وهي تبتسم في خجل فقال لها أبوها:

- هذا ابن عمتك رفاعة ابن الحاج بدوي.

رحّبت برفاعة ونظرت له في خجل طفولي وهي تقول:

- مرحباً بك يا رفاعة، كيف حال عمتي وحال أهل طهطا؟

فقال لها رفاعة بأدب:

- الحمد لله كلهم بخير حال.

ثم قالت له:

- هل حقاً ستدخل الأزهر الشريف؟ هل تحفظ القرآن يا رفاعة؟

فقال لها:

- إن شاء الله يا كريمة فأنا أحفظ القرآن وعلّمني خالي بعض النحو والفقه.

فنظرت إليه وهي تقول:

- وأنا أيضاً فأبي أتاني بمعلمة تحفظني القرآن، هل تريد أن تحفظ معنا؟

فابتسم أبوها وهو يشير لها:

- انتظري يا كريمة فرفاعة يحفظ القرآن وبعض الأحاديث، وسوف يدخل الأزهر الشريف، هذا مكان الرجال أمثاله ليكمل حفظه على أيدي كبار المشايخ.

ولم تمر أيام حتى ألحقه الشيخ محمد الأنصاري بالأزهر الشريف، ليتعلم الفقه وشرائع الدين، ويحفظ ما يمليه عليه شيوخه في وقت قصير، فحفظ «الجوهرة والألفية والخريدة» وصار يعبُّ في ذاكرته ما يطوله عقله من العلم في الأزهر الشريف، ويستوعب كل ما يتعلمه على أيدي شيوخه، ولازم دروس الفقه والنحو والبلاغة، وكان خاله ينتظر منه التفوق لعلمه بنجابته، ويحثّه دائماً على الاجتهاد والتفوق ليصير يوماً ما شيخ عمود كشيوخ الأزهر الأجلاء، ولكن رفاعة فاق تخيل وطموح الخال، فهناك تعرف على دنيا جديدة، فقد درس على أيدي كبار شيوخ الأزهر وعلمائه، وأُعجب بالشيخ حسن العطار واطلع على علمه الزاخر، وكان مفتوناً بكل ما يدرسه على يديه، ولازمه في كل حلقات دروسه، حتى خارج حلقات الدروس طلب منه الإذن ليذهب إليه في بيته ليستزيد من علومه في الطبيعة والكيمياء وغيرها، ولنجابته استجاب الشيخ حسن العطار لطلبه، فهو لا يردّ طلب طالب علم مجتهد مهما كان، وبعد أكثر من سنتين تعلم فيهما رفاعة واجتهد، أصبحت نجابته يفتتن بها الطلبة ويتحدث عنها الشيوخ الكبار، حتى تخطت حدود الأزهر الشريف، وبدأ المهتمون بالعلم والدرس من أعيان القاهرة يطلبونه للعمل كمدرس وموجه لأبنائهم بجانب دراسته في الأزهر الشريف، وبعد عدة محاولات من هؤلاء وبعد فترة من التردد، نصحه شيخه

حسن العطار بأن لا يتردد في تلبية الرغبة لطلاب العلم، وأخذ رفاعة في طرق أبواب الاجتماع ومخالطة ألوان من البشر جديدة عليه، وقام بإعطاء الدروس في قصور الوجهاء، وعندما سطع اسمه أكثر، طلبه أحد الأمراء للعمل في مدراسهم الخاصة، ولم يتردد رفاعة كثيراً هذه المرة، وقبل العمل ليخفف من الأعباء عن خاله، وليستعين به على تكاليف تعليمه ويستطيع شراء بعض الكتب التي لم تكن موجودة في الأزهر، وقد أثار ذلك حفيظة خاله الشيخ محمد الأنصاري، الذي تمنى لابن أخته أن يصير شيخاً بالأزهر لا أكثر، ولكن رفاعة الذي صار شاباً يافعاً، لم يهمل الاستزادة من كل مناهل العلم الشرعي وغيره، واستمر في منهاجه مع معلّمه الشيخ حسن العطار، الذي كان يهيئه ليكون خليفة له، فكان لا يبخل عليه بشيء من علومه ورعاه كأنه ابنه.

** **

-3-

كريمة

بدأ المركب في الإبحار بدون كلل رغم ملل من عليه، وكان رفاعة يجلس في نفس المكان الذي جاء فيه إلى المحروسة. أخذ المركب يتهادى وهو يسير بهم في رحلته إلى مجهول ينتظرهم، تذكر كريمة ابنة خاله العزيز الشيخ محمد الأنصاري، لم ينس يوم أن جاء به خاله إلى بيته في المحروسة أول مرة، يومها تعلّق قلبه بها دون أن يدرك معنى هذا التعلق الخفي، كانت قرة عين أبيها وجوهرة الحياة لأمها، التي كانت تمنعها من مساعدتها في أعمال البيت، ولا تحمّلها أي مشقة من متطلباته اليومية، بل كانت تجلسها نظيفة مهندمة، تراجع دروسها وتحفظ القرآن الكريم، كم كانت تحلو له الأوقات وهو يجاورها في التسلية، وفي بعض الأحيان كانت تطلب منه أن يراجع معها بعض الدروس التي كانت تتلقاها على يد تلك المُعلمة، فتبهره بسرعة الحفظ وتنبه الحواس، وعندما ينتهي، كانت تجلس معه لتتسلى أو تلهو شأن كل من في سنها.

يتمتم:

- كريمة تلك الأنشودة التي همت بها عشقاً وغراماً منذ أن رأيتها، ولا أزال أترنم بها غراماً رغم ارتباطي بها.

أخذه التساؤل عن حالها بعدما صدر تجاهه هذا الأمر بالنفي فتمتم:

- كيف هي الآن بعدما تركتها مرغماً؟

جلس يتمتم بينه وبين نفسه:

- آهٍ يا كريمة... أصبحت لا أستطيع أن أقول ما بي، خشية أن ينصبوا لي حداً من حدود الموت رجماً، فالحرية في زمني، حتى وإن كانت للحب فهي ملك لأهل النفوذ؛ أما الذين لا يملكون نفوذاً، فهم مثلي من أصحاب الحسرات ونوازل القدر، فكل حيرتي في قلبي، وكل مصيبتي في عقلي الذي لا يهدأ ولا يستقر، فهو لا يعدل ولا ينصفني، وكل خوفي من تصرفي الذي قد يلقى بي في متاهات الظل كالنار، فحينما يطرق بابك الجلاد، أو يعرف طريقك السياف، وقتها يكون إلى أين المفر والى أين يكون المصير..

يتنهد وهو ينظر إلى الأفق البعيد، وتظهر للعين صورً للجبال على مرمى شاطئ النيل، يحدث نفسه:

- أنت يا رفاعة تنادى من وسط عواصف كيانك، هل أنت أول من يترك من يحب أم آخرهم، آهٍ يا كريمة.. ما زال حبكِ يتربع في سويداء قلبي، ذلك الذي غزوته وقفلت فيه كل باب لأي أنثى غيرك.

يقلب عينيه على صفحات النيل وهو يسرح بعقله:

- فليقتلوا كل نبض بشريان الحرية، أو يحبسوا الدماء في أوردة المشاعر، ليت عزم الإرادة يتجمع داخلي، لأحاول مجابهة التعنت والرجعية.

تلفه نسمة محملة برحيق مياه النيل، فيتذكر زوجته وحبيبته الأولى والأخيرة:

- لقد تعهدت لكِ بألا يكون قلبي لغيركِ، فحبك قاتلي، والأمنيات تحلق بي في لهفة رؤياكِ، ما عدت أتطلع إلى الآمال دونكِ، وما عاد للحب غير المناجاة وسط طوفان شوقك الذي ملأ كياني.

يتذكر عندما كانت تحدثه أو تنظر إليه فتبعثر تفكيره، ولأول مرة في حياته كان لا يريد الفكاك من حضورها البهي، فها هو الآن لم يعد في مقدوره أن يتحمل الفراق، وكأن قلبه قد أصابته الشيخوخة في بُعده عنها، أو صار الوهن وصفاً لقلبه، فلم يعد يدرك أن علّته صارت فجيعة البعد عن حبيبة القلب الذي صار مملوكاً لها وحدها!

يتذكر يوم أن قالت له:

- هل حقًا تريد الزواج بي يا رفاعة؟

يومها كان يعلم أنها تريد أن تخبره بأنها تحبه، ولكنه أدرك أن تربيتها التي تتخللها طبائع وعادات الجذور الريفية، كانت لا تسمح للفتاة مهما تعلمت أو انتقلت من موطنها الريفي، أن تنطق بتلك الكلمة، ولكنه أجابها على الفور:

- إني أحبك يا كريمة، وآهٍ لو تعرفين مدى ما تملكين من قلبي وكل كياني، لتملكك العجب حقاً.

يومها هربت بعينيها عنه، وتورّد وجهها بحمرة الخجل، ففتاة مثلها لم تعلم بعد عن هذا الشعور بالحب، غير ما طبعته عليها الطبيعة من حب الوالدين، ولكن حبّها لشخص آخر حتى وإن كان

ابن عمتها، هو شيء غريب عنها، ولكن أدركه هو بما عرفه من الحياة، وما قرأه من الكتب الكثيرة عن تلك المشاعر، فما إن صارحها بمشاعره نحوها، حتى شجّعها ذلك على أن تخرج من دائرة الخجل الذي اعتراها، وقالت له:

- رفاعة ما هو الحب، هل حقاً هو شيء ملموس؟

نظر إليها وقد تملّكه فيض من المشاعر وقال لها:

- الحب يا كريمة مرتبة من السمو النفسي، وهو ملموس بالتصرفات التي تنبع تلقائية من الإنسان، ولكنه إحساس لم تبلغه بعد العبارات، فلقد نظمت فيه الأشعار، وحاول كل المحبين على مر التاريخ ترجمته لشيء ملموس، ولكنه أعظم من أن يتجلى على الرقاع والورق لغير المحبين.

يومها تاهت في كلماته، وذاب كيانها فيما يقول، فهل علمت ما يكنّه لها في جنباته، حتى بعدما حدث الوصال وتزوّجها، كان يذوب في حبّها ويتوه منه الرشد في حضرتها، لقد عاهدها من قبل أن يتزوجها، وألا يكون في قلبه معنى للحب لامرأة غيرها، لقد رفض من قبل الارتباط بأي فتاة غيرها، رغم كثرة الترشيحات من الأقرباء والمشايخ المقربين منه، لكي يتزوج من فتاة من أهل الجاه من الصعيد، أو من بنات المشايخ الأجلاء، حتى تلك الأعجمية التي رأى في نظراتها علامات الإعجاب، صرف عقله عنها وقفل قلبه تجاهها، وأحجم بقلبه وعقله عن الجميع، وأوقف قلبه على حب كريمة فقط.

** ** **

-4-

المنفيّ

مرت أسابيع على المركب الذي على ظهره رفاعة في رحلته المتجهة جنوبًا، وقد كان يشق جريان النيل باتجاه الجنوب، وفي مساء أحد الأيام صاح بهم المراكبي فجأة:

- شيوخنا الأفاضل أصدقاء الرحلة، لقد آن لكم الاستراحة على اليابسة.

فنظر إليه أحد الشيوخ الذين يرافقونه قائلاً:

- أين هي تلك اليابسة؟ فأنا لا أرى غير مياه النيل الحالكة في هذا الظلام.

فقال له المراكبي وهو يشير بيده في اتجاه ما، وقال:

- أنت لا ترى اليابسة لأنك لا تعلم شيئاً عن عملنا، ولكننا نعلم بمكانها وقربها بطرقنا.

قهقه الشيخ وهو يقول:

- لله درك أيها الرجل الطيب، فأنت لا تعلم مع من تتحدث لقد درسنا في خارج هذه البلاد وتعلمنا الكثير ولكن لا عليك.

وبالفعل ما هي إلا ساعة، حتى وصلوا بالمركب إلى شط إحدى البلدان، ونزلوا إلى يابستها، فوجدوا بجوار الشط بعض العشش التي يقطنها الصيادون، والذين استقبلوهم بترحاب لعلمهم بصاحب المركب، واستقبلهم أحد الصيادين وكان على معرفة وثيقة بصاحب المركب وسلم عليهم بحفاوة، واستضافهم في عشة خصصها للمارّين به في رحلات سفرهم ذهاباً وإياباً، ثم أجلسهم وقدم لهم واجب الضيافة، وبعد ذلك تركهم فتمدد الجميع ليريحوا أجسادهم، واختار رفاعة مكاناً قصياً في أحد أركان العشة؛ إذ لم يكن يريد التحدث مع أحد، حتى أن أصدقاء رحلته من الشيوخ كانوا يحاولون التخفيف عنه ببعض كلمات الرثاء، فقال أحدهم:

- لا تبتئس يا شيخ رفاعة، كل شيء بقضاء الله.

وتنهّد آخر وهو يربت عليه:

- أنت رجل مؤمن وعلى علم بنوازل القضاء والقدر، ولعل الله أراد فعلاً لأهل تلك البلاد، أن يتعلموا وتزول عنهم عباءة الجهل.

في حين أن ثالثهم تناول أطراف الحديث قائلاً:

- أنت تعلم يا شيخ رفاعة، أننا تركنا أهلنا وأولادنا في سبيل العلم، وهذه ليست أول رحلة نسعى إليها أو تسعى هي إلينا في سبيل العلم.

فنظر إليهم وهو يقول:

- أعلم ما تقولون.. ولكن لو أنها في سبيل العلم لما تكدرت، ولكني على يقين أنها منفى، ويعزّ على نفسي أن أكون سبباً في إلحاق الأذى بالغير، فما ذنبكم أنتم؟

صاح أحدهم قائلاً:

- لا يا شيخ رفاعة.. أياً ما كانت صورة السعي للعلم، فهي رسالة اختصنا الله بها لا بد لنا من إتمامها، وإلا فما الفارق بيننا وبين العامة، أليس الأنبياء أكثر من نالوا المشقة في سبيل رسالتهم، ونحن العلماء ألم يخبر رسولنا الكريم بأن العلماء ورثة الأنبياء.

كان يعلم يقيناً بما يقولون ومؤمن به، ولكنه يعلم في قرارة نفسه، بأنه هو سبب تلك الرحلة إلى منفى الجنوب في السودان، وكان يشعر بتأنيب الضمير لكون ما فعله مع الوالي عباس حلمي قد تسبب لبعض زملائه في النفي معه إلى هذا المجهول.

** **

يتذكر سبب تلك الرحلة إلى منفى لا يعلم طول مدته، فلقد بدأت عواصفها عندما مات عزيز مصر محمد علي باشا، واستقل عباس حلمي بالأمر، وكان أكثر شيء يقلق الوالي الجديد هو الثقافة والتعليم للمصريين، وعندما سمع بطبع رفاعة الطهطاوي كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي ألفه عن رحلته إلى باريس مع البعثة التي أرسلها محمد علي باشا إلى فرنسا، والذي كان لإعادة طبعه وقع جلل استغله البعض ليوقعوا به عند الوالي الجديد، وأخبروه بأن الكتاب يدعو إلى الحريات وسلطة الحكم للشعب، غضب عباس حلمي منه وأخذ موقفاً عدائياً تجاهه وهذا ما أكد ظنونه، فهذا الكتاب قد لخّص فيه رفاعة أسلوب الحياة التي رصدها عن الشعب الفرنسي، إلى جانب ترجمته للدستور الفرنسي، ليكشف مدى عبودية الحكم في الشرق، وقد وصف أيضاَ ثورة الشعب الفرنسي، وانتصر لها وتعاطف معها، وهذا ما جعل عباس حلمي يشعر بقوة المقاومة والثورة داخل هذا الشيخ الذي تعلم في بلاد النور، فقرّر نفيه إلى السودان، وأصدر أوامره إلى «المجلس المخصوص» برغبته في نفي رفاعة من البلاد، واحتار أعضاء المجلس كيف سيرسلون هذا الأمر إلى رجل له ثقله كرفاعة الطهطاوي، فاهتدى الأعضاء إلى وسيلة لنفيه، فاقترح أحد أعضاء المجلس أن يكون النفي على شكل بعثة إلى السودان، بالقول إن هناك مدرسة ابتدائية يجري العمل عليها لتكون نواة للتعليم في السودان.

وقال آخر:

- إذًا لا بد أن هذه المدرسة المقترحة في حاجة إلى ناظر ومدير.

وقال ثالث:

- فليكن إذاً رفاعة الطهطاوي هو ناظرها زمناً يقوم بتأسيسها.

واقترح آخر:

- هذا إلى جانب أن تلك المدرسة تحتاج إلى مدرّسين.

وقال صاحب الاقتراح الأول:

- اقترح أن يكون مدرسو هذه المدرسة الابتدائية، من زملاء رفاعة الذين كانوا معه في باريس وبعض الشيوخ الذين تعلموا في الأزهر الشريف.

وبالفعل تم إخطار رفاعة بالقرار ونفذوا ما اتفقوا عليه بإرسال رفاعة، ومعه بعض رجال البعثة وبعض من شيوخ الأزهر الشريف، وها هم تسير بهم مجريات القدر إلى مجهول لا يعلمون عنه شيئاً.

** ** **

الفصل الثاني

-1-
الشيخ المُعلم

«إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلم ما ليس فيها»

في الصباح كان لإشراق الشمس سحر جميل، وهي ترسل ضوء دفئها ليداعب وجه رفاعة، وهو نائم على ظهر المركب الذي يجدُّ في مسيرته إلى الجنوب، ففتح عينه بصعوبة، فلقد أرهقته الأحلام التي راودته في منامه، كانت السماء صافية من فوقه، ما شجعه على النهوض من جزعه، ليتناول بعض الماء بكفّيه ويغسل وجهه ويتوضأ، ويجلس في هدوء ليصلي، وعندما انتهى عاد إلى مجلسه في ركن المركب، وأخذ يتذكر رحلته الأولى خارج الديار المصرية إلى أرض النور باريس، كان وقتها قد تعدى سنّ العشرين، وعلم من شيخه حسن العطار بأن محمد علي باشا قرّر أن يرسل بعثات لتتعلم في الخارج، وكانت الاقتراحات متعددة للبلاد التي ستذهب إليها البعثة، إما إنجلترا أو إيطاليا أو فرنسا، وفي النهاية استقر رأي محمد علي باشا على أن تكون البعثة إلى فرنسا، وكانت علاقات محمد علي بفرنسا طيبة في ذلك الوقت، فقرّر أن يوفد بعثته إليها ليتعلم أفرادها العلوم الميكانيكية والعلوم الحربية والبحرية وعلوم الطب وغيرها، واجتهد وقتها شيخه ومعلمه الشيخ حسن العطار لدى «الكتخدا» لإلحاق بعض المصريين مع البعثة، ولكن طلبه قوبل بالرفض في بادئ الأمر، فأصر بكل حزم على أن يعرض رأيه على محمد علي باشا، وبعد لقاءه مع الباشا الذي كان يحاول من خلاله إقناعه بأن يرسل مع البعثة بعض المصريين، وكرامة لمنزلة الشيخ حسن العطار عنده، وافق عزيز مصر محمد علي باشا على أن يكون المصريون هم شيوخ لأفراد البعثة، ليعلموهم أمور دينهم هناك، ورشح الشيخ حسن العطار تلميذه رفاعة ليرافق البعثة، وكان اختيار الشيخ حسن العطار لرفاعة نابعًا من يقينه بقدرة هذا الفتي الذي تبناه وسقاه من معارفه، على أن يحقق له ما يرجوه في أن يصبح أحد المصريين يوماً، ممن تعلموا في بلاد النور، واتحدت عزيمته وطموحه على أن يكون تلميذه رفاعة هو هذا الشخص، وسيطر عليه الأمل في أن يعود رفاعة رافعاً رأسه من فرنسا، ويصبح أول مصري يحصل على شهادة تفوق في إحدى المجالات، فلقد زرع الشيخ حسن العطار فيه

حب المعرفة وتحصيل العلوم، يومها أخبره شيخه بحلمه الذي لخصه في قوله:
- اعلم يا رفاعة أن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم ما ليس فيها.
فتعجب رفاعة من قول شيخه وردد:
- ولكن كيف يا شيخي؟
ربت عليه شيخه وهو يجلسه بجواره ليخبره قائلًا:
- اعلم أني اخترتك لتكون مرافقاً للبعثة، التي سيرسلها عزيز مصر الباشا محمد علي إلى فرنسا، وإني يغزوني الأمل والطموح فيك، في أن تصير صاحب شهادة، وتتميز عن باقي أفراد البعثة.
فنظر إليه رفاعة بتعجب وهو يقول:
- ولكن كيف يا شيخنا، وأنا رجل أزهري؟ كل محصلتي من الدراسة، علوم الفقه والنحو وعلومه.
فابتسم الشيخ حسن العطار وهو يقول:
- اتخذني مثالاً.. لقد استفدت من الملازمة والمشاهدة لعلماء الفرنجة الفرنسيين، فتعلمت من علومهم وطرق تعاملهم، واقتربت من علمائهم وأدبائهم، ومن نساخ الكتب الذين جاءوا إلى بلادنا، وهم يحملون الكتب وأدوات الطباعة، لكي يستفيدوا بها مما سوف يعلمون من تاريخنا وعاداتنا.
نظر إليه رفاعة وهو يقول:
- ولكن يا شيخنا أنت تقول إني ذاهب كواعظ في البعثة ليس أكثر.
نظر إليه الشيخ حسن العطار والتمعت عيناه وهو يقول:
- بل أريدك أكثر من ذلك، إن علوم بلاد الفرنجة هي خير علوم، وعلماؤها هم مِن صفوة العلماء، وسبب تقدمهم هذا هو طموحهم الذي لا ينتهي، وحبهم للمعرفة جعلهم يبحثون عنها أينما وجدت، لقد أخذوا عنا كل معارفنا وأصبغوا عليها عصارة فكرهم، فأخذوا من عظماء الأندلس وغيرهم من علماء المسلمين، كابن سينا والخوارزمي وابن رشد، ولم يكتفوا بها بل طوروها، وأريدك أن ترد لنا بضاعتنا.
ظهرت علامات التعجب على وجه رفاعة وهو يقول:
- ولكن كيف يمكنني أن أصير ذا شأن بينهم؟ هل أدرس الطب أم الحربية؟
ربت عليه الشيخ حسن العطار وهو يبتسم:
- إنها بضاعتنا التي أخذوها من علمائنا العرب، وواجبك أن تردها إلينا مرة أخرى مُطعمة بما طوروه بها.

ثم ربت على كتف رفاعة وهو يكمل:
- هل تعلم أن أسرتي كانت تشتغل بالعطارة، وحالها كحال كل أصحاب التجارة، وكُنت سأصبح واحداً منهم لولا أني تمردت على تلك الأوضاع، التي يرثها الابن من الأب الذي ورثها بدوره من الجد، ولكني حرّكت الهواء الساكن حولهم، فنظّمت التجارة وقسمتها بين أفراد العائلة، وصنعت لهم من أبحاثي وما عرفت من مجاورتي للفرنسيس، بعض الأدوية والمطببات العطرية، حتى ارتفع شأن تجارتهم بين التجار، وصار القوم يطلبونهم بالاسم، يومها أدركت أن التعلم من ثقافات الآخرين، هو غاية الطموح للإنسان.
أطرق رفاعة رأسه وهو يفكر، ثم نظر إلى الشيخ حسن العطار، ولمعت عيناه وهو يقول:
- اطمئن يا شيخي سأكون كما قلت، سأتعلم من فنونهم وسأدون كل مشاهداتي، وسوف أتعلم لغتهم وأتقنها كأهلها.
ابتسم الشيخ حسن العطار وهو يربت على كتفه قائلا:
- هذا هو ظني بك.. نعم تعلم من المشاهدة أولاً، ثم أتقن لغتهم، فمن عرف لغة قوم أمن مكرهم «تعلّم بعقلك وارصد بعينيك كل ما تراه، واجعل اليقين في قلبك هو حافزك على الاستمرار، فبالسعي ترتقي مساعي الإنسان.

** **

دفعه الطموح والإصرار الذين بثّهما شيخه حسن العطار، إلى أن يقبل المنحة حتى ينهل من علوم الفرنسيس، يتذكر عندما روى له شيخه كيف بدأ كفاحه بعدما استقرت أسرته في القاهرة، حيث كان والده الشيخ محمد كتن العطار قد أتى من المغرب مسقط رأسه إلى القاهرة، واستوطن بها وافتتح محلاً للعطارة مهنة أبيه وأجداده، وكانت له مكانته بين كل تجار المحروسة، فقد كان خلوقاً وكريماً يحب الخير للناس، وتزوج وأنجب، وعمل بعض أبنائه معه في تجارة العطارة، إلا ابنه حسن، الذي كان يحب العلم والعلماء، وكان يقف أمام بوابة الأزهر الشريف ينظر إلى طلاب العلم وهم يتوافدون الواحد تلو الآخر، ويحملون بعض الكتب والألواح، وهم يرتدون قفطانهم وعممهم وقد تباينت أعمارهم، وفي أحد الأيام تسلل ليندسّ بينهم، وكان يومها أعد العدة للدخول إلى الأزهر الشريف، فحمل أحد الألواح التي كان يحضر بها عند «الفقي» وفي الداخل كان كل الداخلين يخلعون نعالهم ليدخلوا إلى صحن الجامع الكبير، وبدأ كل منهم يذهب إلى أحد الأروقة ليحضر حلقة من حلقات العلم التي يجلس على رأسها أحد المشايخ، ومن داخل

رواق المغاربة كان الجميع يلتفون حول شيخ له هيبة كبيرة، فجلس بينهم الصبي اليافع ينظر بترقب، وعيناه تركّزان على وجه الشيخ وهو يلقي دروسه، وكان الشيخ يلقي دروسه وعيناه تجوبان وجوه طلابه، حتى وقع نظره على الفتى الذي ارتبكت نظراته، ولكنه ظل يتابع باهتمام ما يقوله الشيخ، وما إن انتهى الدرس حتى أسرع حسن إلى الشيخ ليحدثه، فابتدره الشيخ قائلاً:

- أنت أيها الصبي أراك تجلس بين الطلاب وأنت أصغرهم سناً، ما اسمك ومن تكون؟

فقال له حسن:

- معذرة يا شيخي اسمي حسن ابن الشيخ محمد كتن العطار، وأريد أن أتعلم في حلقتك.

فنظر له الشيخ وهو يبتسم قائلًا:

- أنت إذًا ابن الشيخ محمد العطار، وتريد أن تتعلم بالأزهر، نعم التربية فوالدك رجل صالح، ولكن سنّك صغير على مجالسة حلقتي، عليك الذهاب إلى حلقات من هم في سنّك حتى تستوعب العلم.

فقال له حسن:

- ولكني يا شيخي قرأت الكثير من الكتب وحفظت القرآن كاملًا، وأريد أن استزيد من علمك.

ربت الشيخ على كتف الصبي وهو يقول:

- عظيم يا فتى ولكن لابد أن تكون قد فهمت ما أقوله.

فقال له حسن في سرعة:

- نعم فهمت كل ما تقوله وأريد أن استمر في تلقي باقي دروسك.

فقال له الشيخ:

- لا بأس يا فتي ولكن لابد أن تتلقى دروساً من بعض المشايخ، وسأوصي عليك عندهم.

فرح الفتي حسن بتلك الكلمات، وانطلق إلى خارج جامع الأزهر الشريف، متجهاً إلى بعض الشوارع المجاورة للأزهر، حتى وصل إلى محل والده الذي استقبله قائلاً:

- أين كنت يا حسن، يا بني لقد شغلت عليك؟

فقال له ابنه:

- لقد كنت في الأزهر الشريف، وهناك جلست لدرس الشيخ عبد الرحمن المغربي، وبعد الدرس تحدثت معه ورجوته بأن أكون من تلاميذه، وأخبرني بأني سأكون من تلاميذه، ووعدني بأن يوصي بعض المشايخ لأحضر دروسهم.

فرح الشيخ محمد العطار بابنه وربت عليه وهو يقول:
- خيراً فعلت يا بني، وطالما أنك تريد استكمال تعليمك، فلن أقف في طريقك، وسأساعدك في مبتغاك وليوفقك الله.
ووقف حسن يساعد والده في تجارته، حتى انقضى اليوم، وفي المساء أغلقا المحل وذهبا إلى المنزل.
في الصباح جلس الشيخ محمد العطار بجوار جاره بولس أمام محلهما، كان الرجلان يتبادلان أطراف الحديث لحين ورود الزبائن إلى حنوتهما، وفجأة تناهى إلى سمعهما صوت انفجار وصراخ يأتي من قريب، فنهض الرجلان يلتفتان حولهما ليستطلعا الأمر، وبدت حركة المارة تضطرب حولهما، وعلت الصيحات وبدأ القوم يرددون:
(يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف)
انطلقت تلك الجملة تتردد من حناجر الرجال السائرين في دروب وشوارع المنطقة، وكان التجار أمام محلاتهم يقفون وقد ظهر على وجوههم شيء من الدهشة والخوف عند سماعهم تلك العبارة، فالكثير من الناس أمامهم يسيرون بخطى سريعة، والبعض يهرول وقد تخبط بعضهم بالبعض، وتهامسا الرجلان في ريبة، فقال بولس:
- ترى ماذا حدث يا شيخ محمد؟
فقال له الشيخ محمد وهو يقلب كف على كف:
- لا أدري ماذا حدث ربنا يلطف بعباده.
وأثناء حديثهما لمح الشيخ محمد أحد الرجال الذين يهرولون، فنادى عليه بصوتٍ عالٍ قائلًا:
- يا شعيب.
فهرول إليه الرجل مسرعًا فابتدره الشيخ محمد بقوله:
- ماذا جرى يا شعيب هل غارت إحدى التجريدات على المحروسة؟
فقال شعيب وهو يرتجف:
- بل ما هو أصعب يا شيخ محمد لقد خربت التجارة وهدمت الدكاكين؟
ظهر الفزع على وجه الشيخ محمد وهو يضرب كفًا بكف ويردد:
- ماذا حدث لقد سمعنا صوت فرقعات كالمدافع.
فمال عليه شعيب وهمس:
- هذا العطار الجشع أحمد ميلاد العطار، لقد اشترى بارودًا إنكليزيًا من الفرنج، ووضعهم في

برميلين داخل حانوته، وقد حضر إليه جماعة وساوموه على شراء البارود، وطلبوا منه شيئًا ليجربوه، وشرع يزن لهم وهم يضعونه في ظرفهم وتساقط بعض منه، وتسرب بعضها ناحية الموقد وهم لا يشعرون، فاشتعلت ونالت ما في أيديهم، ووصلت النار للبراميل، وفرقعت مثل المدفع العظيم، وارتفعت النيران وهدمت دكان أحمد ميلاد وما جاوره من دكاكين، وامتدت النيران إلى الأبنية والبيوت، وتطاير الشرر في الهواء، وأصاب الكثير من الناس الواقفين والمارّين، وصارت المنطقة كومة من رماد في طرفة عين وأصبحت خرابًا.

ظهر الهلع على وجه الشيخ محمد وجيرانه، فقال جاره بولس وهو يقلب كفيه:

- إن كان ما يقوله شعيب صحيح، فقل على تجارتنا وأموالنا يا رحمن يا رحيم، فلن يسكت المماليك والمحتسب على ما حدث.

فنظر له الشيخ محمد وهو يقول:

- أعلم أنّهم لن يمرروا الأمر بسلام يا بولس، سوف يفتشون كل الدكاكين بحثًا عن بارود آخر، ولن ينجوا التجار من تعسفهم، فهؤلاء القوم لن يتورعوا عن السلب والنهب، أكثر مما نحن فيه.

ولم ينته اليوم إلا وكانت المحروسة تتناقل الأخبار، وسمع الشيخ محمد أحد المارة وهو يحدث جاراً له قائلًا:

- هل تعلم أنه لا أحد تمكن من الفرار، إلا وقد أصيب في بعض أعضائه حتى وإن كان بعيداً إما من النار أو الردم.

وقال آخر:

- لقد كان السوق في ذلك الوقت مزدحمًا بالناس، خصوصًا أننا في شهر رمضان، والسوق يزدحم بالناس لقضاء أغلب حوائجهم من دكاكين العطارين والزياتين وبائعي الكنافة والقطائف.

قال الشيخ محمد العطار لجاره، وهو يرى الناس يتحدثون:

- أحمد ميلاد هذا رجل طماع جلب للجميع المتاعب، فأكثر من مرة أخبره بعدم بيع تلك الأصناف، من الرصاص والقصدير والنحاس والكبريت.

فنظر له جاره بولس وهو يقول:

- يقال إنه عندما اشتعل ذلك البارود، صارت قطع الرصاص والكحل والقصدير تتطاير مثل طلقات المدافع، حتى أحرقت واجهة الربع المقابل لها.

فغمغم الشيخ محمد العطار بصوت مسموع:

- لقد أصبح خان البهار خربًا، وبابه الكبير كسر واشتعلت فيه النار، واتصلت بالطوابق التي

تعلو ذلك الخان وكل من كان قريبًا وسلم أسرع يطلب الفرار والنجاة، يقال إن تجار خان الحمزاوي، قد نقلوا بضائعهم من الحواصل، خوفًا من تطاير النار.

فقال له جار كبير في السن يدعونه الشيخ عامر يجلس يستمع إلى ما يجري حوله:

- لقد كان صراخ النساء من كل جهة، وارتجت الأرض ووصلت الرجة إلى نواحي الأزهر الشريف والمشهد الحسيني، حتى ظن الناس أنها الزلزلة.

وأثناء حديثهم مر بهم شعيب فسلم على الشيخ محمد العطار، وجلس بجوارهم وهو يلتقط أنفاسه قائلًا:

- هل سمعتم آخر الأخبار؟

فنظر إليه الرجال الثلاثة في آن واحد وقال له بولس:

- ماذا جرى يا شعيب؟

فابتلع شعيب ريقه وهو يقول:

- لقد حضر الآغا والوالي إلى مكان الواقعة، وبدأ رجالهم في تتبع أثر النار حتى أخمدوها، وختموا على دكاكين الناس، كما ختموا بيت أحمد ميلاد الذي خرجت النار من حانوته، بعد أن أخرجوا منه النساء.

وقبل أن يحلّ المساء كان التجار في أرجاء القاهرة، يغلقون محلاتهم إلى أجل غير مسمى، وكثير منهم نقلوا بضائعهم إلى أماكن التخزين، خوفًا من المحتسب ورجاله وجنود المماليك.

** **

كان رفاعة يسترجع تلك المواقف التي حكاها له شيخه حسن العطار، والتي كادت أن تعرقل طموح شيخه، ولكنه على الرغم من ذلك كان قويًا أمام تلك العراقيل، فقد حكى له كيف أقنع والده بالذهاب إلى الأزهر الشريف ليستكمل تعليمه مهما حدث، وكيف أن الشيخ محمد العطار كان يرى في عيني ابنه حسن، الذي لم يبلغ الخامسة عشرة؛ الإصرار والفطنة والذكاء، فقال له يومها:

- ربنا ستر علينا من هذا الحادث الأليم، ونحمد الله أن الشرر لم يصل إلينا.

فقال له حسن:

- ولكن ماذا نفعل وقد صارت شوارع المحروسة غير آمنه، وكيف أذهب إلى الأزهر الشريف لأتلقى العلم؟

فنظر له والده وقال:
- ليس الوقت مهيأ للذهاب إلى الأزهر الآن يا حسن.
فقال له ابنه في دهشة:
- وهل سيعلّق الأزهر دروسه بسبب تلك الحادثة؟
فنظر له والده وهو يقول:
- لا أعلم ولكن لابد من الأخذ بالأسباب حتى لا يصيبك أي ضرر، وعندما تهدأ الأمور ستواصل دروسك، طالما أنت مصر على استكمال دروس العلم.
وبعد مرور أيام، بدأت الحياة تعود إلى أحياء القاهرة، وخرج التجار ليفتحوا محلاتهم، وقد كان الكثير منهم ينعي حظّه على البضائع التي نهبت.
وبدأت الحياة تأخذ الفتى حسن العطار إلى دروب العلم، حتى شبّ عوده وحفظ الكثير من علوم الفقه والحديث وغيرها، وبدأ يتأهب للحصول على شهادة عالية، وكان يلازم الشيخ «حسن الجبرتي» الذي وجد عنده من العلوم المختلفة أكثر من ما يدرسه في الأزهر الشريف، وكان الشيخ حسن الجبرتي يرحب به لما وجد عنده من إقبال على التعلم، ويستضيفه في بيته ليعلّمه رسم «المزاولة الليلية والنهارية» حتى أتقنه، وكثيرًا ما كان يجلس مع «عبد الرحمن ابن الشيخ حسن الجبرتي» وكانا يتبادلان المعارف وعندما يتطرق حديثهما إلى أحوال مصر، كان الشيخ حسن الجبرتي ينهاهما عن تلك الأحاديث قائلًا:
- من الأفضل لكما أن تشتغلا بالعلم وتتركا أمور السياسة، فهي لن تدر عليكما غير المتاعب.
وكانا ينصاعان لأوامره، حيث كان بمثابة المعلم والمربي لهما.

** ** **

-2-
التلميذ المُريد

كانت أشعة الشمس قد قاربت على الانحسار، وأخذت حرارتها تخف تدريجيًا، رغم العرق الذي يتصبب على جبين كل الجالسين داخل المركب، فأخذ رفاعة يمسح جبينه وهو يتمتم:
- إن رحلة في تلك الظروف بمركب، شاقة حد الانتحار.
ثم شرد وهو يحدث نفسه:
- ولما لا ووالي مصر عباس حلمي لا يحبه ويريد أن ينحيه عن طريقه.

لم يصدق أن رحلته مازالت في نصفها الأول، كانت الأيام تمر عليهم ثقيلة كالجبال، وكان عليه تحمل كل تلك المعاناة هو وزملاؤه رغماً عنهم، نظر إلى المياه التي تحوط بالمركب من كل الجهات، وترك عقله يسترجع من جديد ذكرياته مع شيخه حسن العطار، فهو من أنار له ظلمة الجهل بما لا يعلم، وكان على يقين بمكانته وحظوته عند الشيخ حسن العطار، والتي تميز بها عن سائر طلبته لكثرة ملازمته لشيخه في دروسه، حتى عندما كان في بيته، كان يلازمه ليرتوي من علومه الأخرى كالتاريخ والجغرافيا والأدب، ويشاركه في الاطلاع على الكتب الغربية التي لم تتداولها أيدى علماء الأزهر حينها، وعندما تخرّج من جامع الأزهر، وكان وقتها قد قارب العشرين عاماً، جلس للتدريس بعد أن أثبت جدارته في نفس المكان الذي جلس فيه من قبل شيخه ليدرّس، فلقد كانت الدراسة حرة بالأزهر الشريف، يُقبل فيها الشيوخ على طلابهم من الذين يلتمسون فيهم التفوق للاستفادة من ما تعلموه، ويصرفون النظر عن كل من لا يجدون عنده الجدية والالتزام، وكان رفاعة يمتلك حسن بيان جعله يغوص في المعاني الدقيقة ويطرحها بسلاسة، فيفهم دروسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا التباس، ولن ينسى أنه في أحد تلك الدروس التي جلس ليلقيها على طلبته، شارحاً لمن حوله كتاب «المعجم الوجيز في أحاديث الرسول العزيز» وكان حاضراً يومها أحد أخواله الشيخ فراج الأنصاري، والذي وصفه البعض بالعالم الزاهد لتركه التدريس بالأزهر وعودته إلى بلدته طهطا، وكان يجلس متخفياً بين الطلاب المجتمعين حول رفاعة، واستمع معهم إلى شروحه؛ لم يتمالك نفسه وقتها من طلاقة لسان ابن أخته وصاح قائلًا:

- لله درك يا ابن الأخت! لقد بلغت في العلم درجة الأعلام، ونلت بفصاحة اللغة مرتبة تقف دون وصفها الأقلام.

يومها كانت غبطته كبيرة لشهادة خاله التي لفتت إليه الأنظار، مما أثار حفيظة بعض المشايخ تجاهه بالغيرة والحسد، ومنهم مَن هاجمه في بعض حلقات دروسه منكراً تبسيط الشرح وتطعيمه له ببعض النظريات العلمية، التي كان يرفضها حينها بشدة مشايخ الأزهر، ولقد دافع عنه الشيخ حسن العطار بقوة، ووقف أمام كل من يهاجمه من الطلاب أو الشيوخ الذين كانوا ينتقدون معرفته بالعلوم والآداب الأخرى، ويستنكرون استخدامه لها لتبسيط علوم الفقه بالأزهر الشريف.

تنهد رفاعة وهو يتذكر تلك المحنة التي يواجها، ولكن ذاكرته عادت به إلى أكبر محنة عرفها، والتي واجهت شيخه، وجعلته يهجر موطنه ويهرب خوفًا من الوباء والبلاء.

** **

(يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف)

كان لانطلاق تلك الجملة في شوارع المحروسة، أثر السحر فهي دائماً ما تنبئ بحدوث أمر جلل، كان بعض الرجال يهرولون في الطرقات وهم يرددونها وقد رفعوا أيديهم إلى السماء، والتجار يخرجون من حوانيتهم وهم في ريبة عند سماعهم تلك العبارة، ووقف الشيخ محمد العطار أمام محله ونادى بأعلى صوته على شعيب الذي يقف بعربته (الكارو) فيتجه إليه مسرعاً فيبتدره الشيخ محمد بقوله:

- ماذا حدث يا شعيب هل وقع الطاعون؟

فنظر إليه شعيب وهو يرتجف قائلًا:

- بل المحتل يا شيخ محمد إنهم الفرنساوية لقد دخلوا الإسكندرية.

ظهر الفزع على وجه الشيخ محمد وهو يضرب كفاً بكف ويردد:

- الفرنساوية يا للخراب ضاعت المحروسة وخربت.

فأسرع إليه جاره بولس مستفسراً:

- هل ما يقوله شعيب صحيح؟ فإن حدث فقل على تجارتنا وأموالنا يا رحمن يا رحيم.

فنظر له الشيخ محمد وهو يقول:

- يا بولس بل قل على المحروسة كلها يا رحمن يا رحيم، فهؤلاء القوم لن يتورعوا عن السلب والنهب أكثر مما نحن فيه.

ورفع الجميع أيديهم وهم يرددون:

- يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

ولم يمر اليوم حتى كان الخبر تأكد للجميع وأصبح واقعاً ملموساً، فبدأ التجار يغلقون محلاتهم ويخزنون بضائعهم في مخازن بعيدة عن الأعين، ومرت أيام ثقيلة على أهل المحروسة، وفي المساء جلس الشيخ محمد العطار مع ابنه الذي صار فتياً فارع الطول عريض المنكبين والصدر، يميل إلى الحمرة في البشرة وله لحية خفيفة، حاد النظر ضيق الجبهة، فقال له:

- ما العمل الآن يا حسن، هل نفرّ مع من فروا إلى الجنوب أم إلى الشمال؟

فنظر له ابنه حسن وهو يقول:

- لقد سمعت أن إبراهيم ومراد بك، بدأوا في تجهيز جيش لمواجهة هذا الغزو الفرنسي، وساعدهم الكثير من الأهالي لمحاولة صد هذا الهجوم.

فقال له والده:

- ولكن الفرنسيس بدأوا في الاقتراب أكثر من المحروسة.

فقال له حسن:

- أرى أن ننتظر ما ستفسر عنه الأحداث.

وفي صباح اليوم التالي كان الفرنسيون قد بدأوا في الدخول إلى مشارف القاهرة، وما إن اقترب الجيش الفرنسي من القاهرة، حتى لاحت لهم من بعيد قمم الأهرامات، فبدأت تدب فيهم روح التحدي والإصرار، والتقوا بقوات المماليك ودارت رحى الحرب بلا هوادة وقتل من جيش المماليك من قتل وفر منهم من فر، حتى أن «مراد بك» فرّ إلى الشمال وفرّ «إبراهيم بك» إلى الصعيد، وبدأ المماليك يحذون حذوهم ففرّ منهم من يخشى على ماله وأبنائه، ومن خشي على نفسه إلى أطراف القاهرة شمالاً وجنوباً، ووصلت الأنباء السيئة إلى قلب القاهرة، وجمع أغلب التجار متاعهم وبدأوا في الفرار منها، واتجه الشيخ محمد مع ابنه حسن إلى الصعيد.

وعانى الشيخ محمد العطار وأبناؤه الأمرين في طريقهم إلى الصعيد، فقد كانت الصحراء تنخر قواهم، وقد استسلم أغلب من معهم فمكثوا في بعض البلاد القريبة، واستمر هو ومجموعة في السير حتى وصلوا إلى أسيوط، وقرّروا البقاء فيها، واستقر الحال بالأسرة في أسيوط، وبدأ الشيخ محمد العطار في مزاولة عمله فيها، ومرّت الشهور على هذا الحال، حتى بدأ ينتشر بين الناس مرض الطاعون، وكان يحصد القوم بلا رحمة، فأرسل الشيح حسن العطار إلى صديقه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في مدينة «أبيار» التي فر إليها ليخبره بما حدث لعلمه باهتمام صديقه بتدوين تلك الحوادث، ومع مرور الأيام عزم حسن العطار على ترك أسيوط هروبًا من هذا الوباء، ليتجه إلى القاهرة فهو يعلم أن الفرنسيين فيها أخف ضرراً من الوباء، وعندما رغب حسن العطار في العودة إلى القاهرة حدث والده بذلك قائلاً:

- أرى يا والدي أن نعود إلى المحروسة والعودة إلى الأزهر الشريف، فلقد بدأت الأمور تهدأ بعض الشيء هناك وتسوء هنا.

فقال له والده:

- ولكن الفرنسيس قوم جبّارين ولا يغرنك ما قدموه من حسن نية.

فقال له حسن:

- ولما لا نفترض حسن النية فوجهتهم المماليك لا أهل المحروسة، وقالوها علانية أنهم يريدون تخليص مصر من المماليك.

فقال له والده:

- وهل تصدق كلام المحتل إنهم يكذبون يا بني.

فقال له ابنه:

- لقد سمعت أنهم جلبوا معهم مكتبة وعلماء معهم آلات حديثة، وأريد أن أستطلع الأمر ربما استطعت الاستفادة من علومهم.

فقال له والده:

- أنت دائماً تبحث عن العلم فلله الأمر من قبل ومن بعد، اذهب بمفردك تصحبك السلامة ورعاية الله، فأنا أعلم تفكيرك وإصرارك على موقفك، وكنت أتمنى أن تمكث معنا فإني أخشى عليك يا بني.

فنظر له ابنه في حنان وهو يقول:

- لا تخش شيئًا يا أبي كُل مقدر بيد الله.

وفي اليوم التالي تأهب الشيخ حسن العطار للعودة من جديد إلى القاهرة، وكان معه في رحلته بعض الرجال من الذين فروا إلى الصعيد، تجمعوا لمناصرة أهل القاهرة والعودة لكي يقوموا بواجبهم تجاه الوطن.

** **

في تلك الأثناء أرسل نابليون إلى أهل مصر خطاباً يطمئنهم على أموالهم وحياتهم، وتجمّع البعض في الأزهر ليناقشوا ما جاء في هذا الخطاب، وكان على رأسهم مجموعة من العلماء والأعيان يتقدمهم الشيخ «عمر مكرم» فقال أحدهم:

- أعتقد أن نابليون هذا مراوغ فكيف يطلب منا الأمن على حياتنا وأموالنا، وقد وعد أهل الإسكندرية بعدم التعرض لحريتهم وتقاليدهم، وما لبث أن جرَّدهم من السلاح، وأمرهم أن يحملوا على صدورهم تلك القطعة المستديرة من القماش الملونة بالأزرق والأبيض والأحمر؟

فقال آخر:

- تقصد شارة الجمهورية الفرنساوية، المشكلة في أنه يبدأ خطابه ببسم الله الرحمن الرحيم، ويشهد أن لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه، كما يشير في خطابه إلى أن قانون الفرنساوية، مبني على أساس الحرية والتسوية، ويقول إن السير عسكر أمير الجيوش الفرنساوية «بونابارته» يعرف أهالي مصر جميعهم من زمن بعيد، وعلم أن «الصناجق» الذين يتسلطون على البلاد المصرية يحتقرون التجار الفرنسيين ويظلمونهم ويتعرضون لهم بأنواع

الإيذاء والتعدي، فحضر الآن لمعاقبة هؤلاء الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد «الأبنزة والجراكسة» ليُفسدوا في الإقليم، وقد قرّر القضاء على سطوتهم.

فنظر إليه الشيخ عمر مكرم وهو يقول:

- وهل نصدق أن نابليون هذا مسلم لمجرد أنه وضع البسملة وشهد بوحدانية الله عز وجل في بداية خطابه؟ إنه ماكر كبير.

وقال آخر:

- ربما أراد نابليون بهذا المنشور أن يُخضع المصريين من باب الدين واحترامه لعقائدهم، إنه غير صادق وهذا ما جعل الكثيرين، يهربون إلى القرى والبلاد، التي بمعزل عن طريق الفرنسيين، حتى لا يقعوا في حبال مكايدهم.

قال أحد الجالسين:

- يا شيوخ لا نظلم الرجل بما لم يظهر بعد، فقد ذكر في كلامه أنه ما نزل بهذا البلد بقصد إزالة الدين، وإنما جاء لكي يخلِّص المصريين من يد الظالمين.

فابتسم أحدهم وهو يقول:

- أنت طيب القلب يا شيخ زاهر، هل تصدق كلامه بأنه كما، قال إن الفرنساوية أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في «رومية» وخربوا فيها كرسي البابا، الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة «مالطة» وطردوا منها من يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، وهم محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانيِّ وأعداءَ أعدائِه.

فقال له الشيخ زاهر وهو ينظر إليه:

- الرجل يقول بأن المماليك امتنعوا عن إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره.

فصاح به الشيخ عمر مكرم وهو يقول:

- هذا كذب ما سمعنا عن محتل، يأتي ويتجشم عناء السفر وبذل الجنود والعتاد، من أجل تخليص قوم من قوم ظالمين أمثالهم، لقد جاهدت كثيراً لإثبات بطلان حكم المماليك فيما مضى، تنفيذاً لفتوى الشيخ «العز ابن عبد السلام» والفرنسيين مثلهم فهم يسعون إلى امتلاك الأراضي والمال، نابليون هذا أفاق كبير، وسأتولى أمر مواجهته.

** **

يزفر رفاعة بشدة وهو يستغفر الله، وعاد يتذكر كيف كان لشيخه الفضل في أن يصبح يوماً شيخاً فقيهاً وعالماً موسوعياً، تعلم في باريس أو كما يسمونها بلاد النور.

يُلقي برأسه إلى الوراء ونظره معلّق بنجوم السماء، ويطوف بخلده يوم أن رافق أفراد البعثة ونظراتهم له بصفته شيخاً معمماً وواعظاً وإمام الصلاة لفروضهم فقط، وتعجب من إصرار هؤلاء الدخلاء على بلده بالتظاهر بالتدين حتى وإن كان على غير الإسلام، وبتمسك المسلم منهم بتقاليد الدين الإسلامي حتى وإن كان شكلياً.

ولكن رفاعة قرّر أن يستفيد من الفرصة فما إن بدأت الرحلة إلى فرنسا، وقبل أن تطأ قدماه أرض باريس، ترددت في ذهنه تلك الكلمات التي ألقاها عليه شيخه ومعلمه حسن العطار: (إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلم ما ليس فيها) تلك الكلمات التي تردد صداها في كيانه، جعلته يعقد العزم على الاستفادة من تلك البعثة مهما كلفه الأمر، وأن لا يعود من تلك الرحلة ذلك الشيخ المعمم المنوط به الدعوة إلى الصلاة بالمبعوثين فقط، بل سيكون أحد الأفراد المتعلمين من علوم الغرب، ولم يدر في خلده أنه عندما يعود سيواجه تعنتاً لم يشهده من قبل وسيُنفى، وتساءل: (هل عاد إلى بلاده بعدما حصل على شهادة تفوق ليصير في يوماً ما منفيّاً عنها؟ هل هذا جزاء اتساع مداركه وتحصيله العلم والمعرفة، لتغيير عقول القوم التي يسودها الجهل والبدائية) فكيف له أن ينسى مناظر العبودية والسخرة لأهل بلدته، كيف ينسى الجهل والظلام الذي يسود الحياة من حوله، لقد رأى وسمع عن ممارسات المشعوذين، وكيف كان الناس يميلون إليهم، وكيف ترك ذلك انطباعاً عند الغربيين بأن أهل المشرق بدائيون جهلة يعتقدون في السحر وخلافه من تبرك الكثير من الجهلاء بالمجاذيب في الطرقات، وقد أنكر تلك الطقوس التي تتم في الموالد والمقابر لجلب أو إبعاد الخير عن الآخرين، لقد فطن أن عقول بني وطنه مداركها واسعة لا ينقصها غير الانطلاق إلى رحاب العلم، لقد رأى في بلاد أوروبا تطور العلوم والفنون وعرف واطلع على الأدب وتعلم وترجم الكثير، ولمس الحريات التي جُعلت لحفظ كرامة الإنسان، وشاهد التصرفات المطلقة للفرد، وعرف معنى تلك الممارسات الحقوقية، ونهل من معين الثقافة والتمدن.

عاد لمحاورة نفسه: (تغير كل شيء بعدما توفى محمد علي باشا، لم أتخيل أن أصطدم بالرجعية التي حاولت تحطيمها، في محاولة لتعديل مسار الفكر لأهل بلدي، لقد علمت بأن في بلدي منْ إنْ سنحت لهم الفرصة للتعلم، فسوف يتفوقون على عقول الأوروبيين، فأهل بلادي يستطيعون أن يرتقوا ويصبحوا في مصاف العلماء والأدباء فقط إن تحصلوا على الفرصة المناسبة، حينها

سوف يخرجون من ظلمات الجهل والخزعبلات إلى رحاب العالم بالتعلم والمطالعة) ورغم ذلك تحطمت تلك الطموحات عندما استدعاهم الوالي عباس حلمي، وأنهى بعثتهم بل وأمر بإغلاق المدرسة المصرية بباريس التي أقامها محمد علي باشا، وعندما واجهه رفاعة أمر بنفيه إلى أقصى الجنوب، فكان العقاب على محاولة تحريك هذا الماء الراكد منذ سنين خلت، يتذكر أخواله ممن سنحت لهم الفرصة للتعلم، فصار منهم وعاظ وقضاة وشيوخ في الأزهر، حتى أستاذه وشيخه حسن العطار الذي فاق أقرانه بالمعرفة والعلم، قد سنحت له هو الآخر فرصة الاقتراب من الفرنسيين واطلع على بعض علومهم، فتلك الفرصة التي أُتيحت له في ظل أحلك الأحداث عندما احتلت فرنسا مصر، لم تمنعه من السعي والاحتكاك بعلماء الحملة الفرنسية، وقد كان يقوم بدور المدرس لبعضهم ليتعلموا منه اللغة العربية، واستفاد من ذلك الاحتكاك الكثير، فاستجدى سبل السعي ليطور من مداركه في شتى العلوم في الأدب والكيمياء والطبيعة فصار له شأن عظيم، وكما رأى في علم الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتي، فكثيراً ما كان يأخذه شيخه إلى حيث يجلس مع هذا الشيخ الذي كان ذا علم بأمور الدنيا وطبائع أهلها، وله ورد يكتب فيه يومياً بلا كلل ولا ملل ليدون الأخبار والأحداث، وما يراه من عادات وسلوكيات البشر حوله، وعندما سأل شيخه ذات يوم عن هذا، قال له وهو يبتسم:

- الشيخ عبد الرحمن رجل ذو فكر اجتماعي مستنير، وقد ورث حبه للعلم من أبيه الشيخ حسن الجبرتي.

قال له رفاعة متعجباً:

- وهل كان أبوه هو الآخر يدون الأخبار والأحداث؟

ابتسم الشيخ حسن العطار وهو يجيبه:

- لقد كان والده يقرأ في علوم الفلك والحساب والهندسة وغير ذلك، وعندما توفي أكمل عبد الرحمن مسيرته، ثم أخذ على عاتقة تحمل مسؤولية تدوين التاريخ لتنتفع به الأجيال من بعده.

نظر له رفاعة وهو يقول:

- وهل للشيخ عبد الرحمن عمود بالأزهر يعقد فيه حلقات التدريس، كما هي عادة الشيوخ؟

نظر إليه شيخه وهو يجيبه:

- نعم وكان له طلبة ولكنه ترك العمل بالأزهر، حيث كان لا تعجبه بعض الأفعال والتصرفات من زملائه.

يومها اتضح لرفاعة أن طبيعة الشيخ حسن العطار بها مقدرة في البدء لتكوين جيل ينهض

بالمهام الجديدة، فلقد كان الشيخ حسن العطار واسع الأفق على دراية بالعلوم، التي كانت تقف منها عقلية الأزهريين التقليدية موقف العداء، كالحساب والتاريخ والجغرافيا والأدب والفلسفة.
وقد أدرك من مجاورته للشيخ عبد الرحمن الجبرتي أهمية ما عنده من أخبار العلماء وأخلاقهم، فكثرة أسفاره خلقت عنده ملكة النقد والتحليل وكانت جلية في كتاباته، وما شرحه لهم من معرفته بالكثير من أخبار البلاد والعباد، من خلال سفرياته في بر مصر وغيرها، مما جعله دقيقاً في تحليل ما يصافه مدوناً كل ما رصدته عيناه وسمعه عن الحياة لأغلب فئات القوم بالقاهرة ومدنها وقراها.
ولقد فطن الشيخ حسن العطار بذكائه إلى ما يحتاجه المستقبل، فقال لرفاعة:
- إن المستقبل يا رفاعة يحتاج الكثير من العلوم العملية إلى جانب العلوم النظرية، كالرياضة والهندسة والزراعة والمعادن.
فنظر له رفاعة وهو يقول:
- ولكن أين السبيل لتحصيل تلك العلوم؟
فربت الشيخ على كتف رفاعة وهو يقول:
- هذا دورك يا رفاعة فهو دور الشباب الطموح، ففي أوروبا الزاد الفني والأدبي للروح، أريدك أن تمزج في رحلتك بين روح المشرق وروح الغرب وأساطير اليونان، اجتهد في السعي والاطلاع حتى يتحقق لك ذلك.
ولقد أدرك الشيخ حسن العطار بأن عصر محمد علي باشا هو عصرٌ للتنوير، ولابد له ولكل أفراد الشعب المصري والأمة العربية، أن تجتاز باب العلم وتغلق خلفها باب الجهل بمزلاج من فولاذ.
فلقد أخبره شيخه بأنه لن ينسى ما حدث من مواجهة عمر مكرم وهزيمته أمام نابليون، وقتها لم يفلح عمر مكرم في الوقوف أمام نابليون بكل عتاده ومعداته وثقافة هؤلاء القوم، وأخبره شيخه بأنه عندما جلس مع مجموعة من علماء الدين، وكانوا مجتمعين ليتداولوا فيما بينهم ما سوف يفعلونه أمام هذا العدو الجديد، قال أحدهم:
- هل ستظل مصر تحت حكم الطغاة من المحتل الأجنبي وغيره من المماليك؟
فرد عليه أخر:
- لقد عانت مصر ونحن كل أنواع الظلم وسوء الإدارة، مما أضعف تجارتها وجعلها في معزل عن بقية العالم.

فقاطعه أحدهم قائلاً:

- نعم فأصبحنا لا ندري شيئاً عن قوى الدول الأوروبية وأطماعها، وفرضت علينا الجاليات من الفرنسيين والإنجليز يعيشون بيننا عنوة.

أشار إليهم الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- إن الشيخ عمر مكرم تسرع في مواجهة هؤلاء القوم، فهو رجل دين وفقه وليس قائد حرب، فإذا كان قواد الحرب أمثال مراد بك وإبراهيم بك قد فروا أمامهم، فهل سيصمد هو ومن معه أمامهم.

فقال أحدهم:

- لعلك تدين ما فعله الشيخ عمر مكرم ومن معه؟

فنظر إليه الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- أبداً الرجل تقدم الصفوف للدفاع عن المحروسة، وعن كرامتها ولكن لم يحسن التدبير ولم يكن على علم بسياسة الحرب.

فقال له أحدهم:

- هؤلاء القوم كان يعيش بيننا منهم من هم أدنى مرتبة من المصريين، فكيف أصبحوا هم السادة الآن؟

فنظر إليهم الشيخ حسن العطار قائلاً:

- نحن اكتفينا بالنظر إليهم بعين الازدراء، وكنا نظن أن دولهم ما زالت على الضعف الذي سمعنا به منذ أيام الحروب الصليبية، وفاتنا أن الزمن قد تغيَّر، وأن أوروبا أصبحت بها القوة والعلم، والكثير من عظيم الدراية بالفنون الحربية بحيث لا يمكن مواجهتهم.

فقال أحدهم:

- هل تعتقد يا شيخ حسن أن لتلك الجاليات يد في هذا الاحتلال؟

فقال لهم الشيخ حسن العطار وهو ينظر إلى الجميع:

- يقال إن نابليون نفسه لم يقدِم على احتلال المحروسة إلا بعد تفكير طويل؛ وقد استشار القادة، وقرأ التقارير والكتب لكي يستطيع فهم عادتنا، وبعدئذٍ عرض اقتراحه على هيئة الحكومة الفرنسية وقرّر بعدها الغزو، وعلمت أن رغبة فرنسا في هذا الاحتلال هو زيادة نفوذها في البحر الأبيض المتوسط، وضم وادي النيل إليها لِمَا فيه من الخيرات الكثيرة، التي تُغني فرنسا عن كثير من المستعمرات البعيدة، ولِمَا لها من المكانة التجارية العظمى.

ثم استطرد وهو يكمل:

- ولا ننسى أنهم في صدام مع الإنجليز، ويسعون لطردهم من الهند واستيلاء الفرنسيين عليها، فمن خلال مصر يصبح الطريق سهلًا إلى تلك البلاد، واعتقد أن نابليون له أطماع كبيرة، وربما تتوق نفسه إلى أن يفعل كما فعل الإسكندر من قبله.

قال أحد الجالسين وكان يرتدي زي الأزهريين:

- ربما يكون السبب هو ما نال الفرنسيين المقيمين بالمحروسة من بطش المماليك وظلمهم، وهذا هو السبب الذي جعل الفرنسيس يقومون بتجريد تلك الحملة على المحروسة، رغم أنهم حلفاء للسلطان العثماني، وربما أقنعوه بطرد المماليك من المحروسة وتسليمها له.

فقال له الشيخ حسن العطار:

- لا أعتقد فإن الفرنسيس قد أعدوا خطتهم بمزيد من التكتم والسرية، كي لا يعلم بمسيرها أحد، وخاصةً إنجلترا أشد أعداء فرنسا.

فقال أحدهم:

- هل تعلم يا شيخ حسن أنهم قد قاموا بإعداد الجند والسفن الحربية والمراكب، التي كانت تضم الكثير من الجنود والضباط مثل «كليبر وديبزيه ومينو ومورات» وأعدوا أسطولاً كبيراً جعلوا على رأسه قائداً يدعى «بروي» وسلَّحوه بالكثير من المدافع والذخيرة،

فنظر له الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- اعلم كذلك أنهم اصطحبوا معهم مَا لا يقل عن مائة رجل من أعظم علماء فرنسا، جمعوهم من أساتذة العلوم والفنون، وجهَّزوهم بكثير من الكتب والآلات العلمية، مما أرى أنه ربما يكون له فائدة في الاستكشاف عن آثار المحروسة وكنوزها، هذا غير إحضارهم مكتبه ضخمة ومطبعة لتساعدهم في طباعة الكتب.

** ** **

-3-

مذاق العلم

كان رفاعة يقلب وجهه في الأرجاء حوله، وهو ينظر حوله ومياه النيل تجري عكس سير مركبهم، فلن ينسى الحُلم الذي عاشه طوال السنين الماضية لتحقيق تلك الرغبة له ولشيخه، بأن يصير في يوم ما رفاعة الطهطاوي المثقف المصري العربي، الذي درس وتعلم في بلاد

النور باريس، فلولا شيخه ما أصبح هو من أصحاب الفكر والمهارات التي أهلته ليحصل على فرصة للتفوق في بلاد النور، كما لن ينسى جميل خاله محمد الأنصاري، وفضل معلمه وشيخه حسن العطار ما دام في صدره نفس يتردد، فلقد كان لسعي الشيخ حسن العطار للمعرفة وعزيمته لتحقيق طموحه، وتغيير الواقع الذي يعيشه في المحروسة أثر كبير في تكوين ثقافته، بعدما كانت الأسئلة تلقي به في دوامتها ليتحقق من ضرورة العلم، حتى اقتنع الشيخ المستنير بضرورة التغيير، فأطلق صيحته الشهيرة: (إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها) ولقد حاول شيخه كثيراً أن يجدد بهذا الفكر وهو في موقعه بالأزهر، لكنه كان يواجه صعوبة فهم شيوخ الأزهر للوعي الذي وصل إليه، فقرّر أن يرعى كوكبة من النابهين، وكان رفاعة الطهطاوي على رأسهم، فأخذ يلتقي بهم في منزله ويلقي إليهم بمشاهداته، وحصيلة احتكاكه بعلماء الحملة الفرنسية، ويحدثهم بقوله:

- إن ما وصلت إليه الأمة الفرنسية، من المعارف والعلوم من كثرة اطلاعهم على كتابات المتأخرين، وتحريرها وتقريبها للتبسيط للاستفادة منها، حتى أنهم قاموا بكتابة كتاب موسوعي عن وصف مصر، سجلوا فيه كل ما شاهدوه واطلعوا عليه من أحوال بلادنا.

وشرح لهم عن تجاربه وخبراته التي اكتسبها قائلاً:

- كنت أنا أيضاً أستفيد من كل ما أتحصل عليه من أسفاري في البر والبحر، إلى بلاد الشام والأتراك العثمانيين، على غرار ما يفعله هؤلاء الإفرنج.

عندها أدرك رفاعة بأن شيخه سيكتسب منه مبدأ السعي، الذي استطاع به الشيخ حسن العطار أن يحقق لنفسه الطموح الذي لم يكن يخطر على بال أقرانه، فكم حكى لهم عن اجتهاد هؤلاء الإفرنج، وتدوينهم لكل ما تصله مداركهم خارج بلادهم، ليستفيد بها أهل تلك البلاد من معرفة عادات وتقاليد وعلوم البلاد الأخرى.

كان الشيخ حسن العطار يتذكر وهو يحدثهم عندما استقرت الأمور في القاهرة بدأ هو في سعيه لكي يتعرف على بعض العلماء الفرنسيين، ونجح في ذلك لرغبتهم في استمالة جانب المصريين، عندما عمل نابليون على تنظيم حكومته وبدأ في إدخال بعض الإصلاحات التي تتوافق مع ثقافة الفرنسيين، مما سهل على الشيخ حسن العطار التقرب إليهم، وقام نابليون بتنصيب أحد رجاله حاكماً على القاهرة وجعل آخر مديراً للشئون المالية، وأمر بتشكيل ديوان من الأهلين ليسترشد بهم في إدارة البلاد، وكان هذا الديوان مكون من عشرة من المشايخ، على رأسهم الشيخ «عبد الله الشرقاوي والشيخ خليل البكري» وغيرهما من كبار العلماء، إلى جانب

بعض أعضاء يمثّلون جميع الطوائف الأخرى، وجعل بينهم بعض أعضاء من الفرنسيين.
حينها بدأ الشيخ حسن العطار يطّلع على كتبهم وتجاربهم وما معهم من آلات علمية، وفي أثناء ذلك طلب منه بعض العلماء تعليمهم اللغة العربية، وكان يواجه هجوم الكثير من الشيوخ والأعيان الذين كانوا يرفضون ما يفعله الشيخ حسن العطار بتقربه من الفرنسيين، وحدثوه بذلك صراحة في إحدى الجلسات التي جمعتهم به فقال أحدهم:

- إن ما تقوم به يا شيخ حسن تجاه الفرنسيس غير وطني.

فنظر له الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- كيف هذا يا شيخ عبد المجيد، هؤلاء القوم جاءوا إلى بلادنا ومعهم من العلوم ما يمكننا الاستفادة منه فلماذا نعرض عنهم.

فقال له الشيخ عبد المجيد:

- ولكنك بتقربك هذا تثير سخط المشايخ والعامة.

فقال له الشيخ حسن العطار:

- ولما يثير سخطهم أنا أنهل من علومهم، واستفيد منها لأعلمها لأبنائنا ليكونوا على دراية بتقدم الأمم الأخرى.

فأشاح أحدهم بيده وهو يقول موجهاً حديثه للشيخ حسن العطار:

- لعلك لم تسمع بما يفرضه نابليون على الناس، لقد أمرهم بكنس الشوارع ورشِّها ووضع مصباح على كل منزل، وتوعد كل من يخالف ذلك بالعقوبة الشديدة.

فقال له الشيخ حسن العطار:

- وما الضرر في فرض النظافة ألم يأمرنا بها ديننا الحنيف؟

فقال آخر:

- وماذا تقول في قانونه لقيد الزواج والمواليد، وفرض غرامة لكل من يخالف تلك القوانين.

فنظر له الشيخ حسن العطار قائلاً:

- اعتقد أن الأمر متعلق بحصر الزواج والمواليد وليس الإقلال منه؟

فصاح الشيخ عبد المجيد وهو يقول:

- أليس هذا تدخل سافر في شؤوننا الشخصية، فأين وعوده إذاً؟

فقال له الشيخ حسن العطار:

- لماذا ننظر إلى الأمور بتلك النظرة التي تجعل من أي تجديد وإصلاح نظرة انقلاب على

المعتقد والموروث، الأمر لا يعدو مجرد حصر لا أكثر ثم إن الرجل قام بالكثير من الإصلاحات الأخرى الخاصة بالصحة العامة.

فصاح به أحد الأعيان وهو يقول:

- إذن فهو يريد الإصلاح الذي يناسب حياتهم لا حياتنا، فلقد أمر بهدم أبواب الحارات والدروب.

وقال أحد الشيوخ وهو يشيح بيديه:

- لقد قام بهدم الكثير من البيوت والمساجد وهذا كفر بيِّن صريح.

وقال أحد الأعيان:

- هذا غير أنه فرض على البعض من العاملين بديوانه تعليق شارة الحكومة الفرنسية، وتوعدهم بالعقاب إن رفضوا.

فنظر إليه الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- وما هو الحل الذي ترونه، أن يترك الرجال مواقعهم ويبدأوا في عدم مساعدته، ويتركوا المناصب للأجانب ثم نعود لنقول استحوذوا على كل شيء.

ولم يعجب كلامه حينها الشيوخ وانفض المجلس، وقد استيقن الشيخ حسن العطار ما يضمره القوم له داخل صدورهم، ولكنه أصر على السعي في التعلم والاستفادة من العلماء الفرنسيين، واهتم بما يدونوه وما يفعلون من تجارب وصارت تلك المحاولات تثمر لديه الإفادة من علومهم، فاطلع على كتبهم وتجاربهم ولازم العلماء والكتاب منهم، وكان كثير التردد على المعامل والمطبعة ليطلع أولا بأول على ما يقومون به، ويذهب إلى مكتبتهم ليطلع على ما بها من كتب ويرى إتقان صفها وتغليفها، حتى أنه بلغ من استيعاب العلوم والهندسة في وقت قليل ما جعله متميزاً، كما أنه لم يهمل التدريس في الأزهر رغم ما يقوم به بعض الحاقدين عليه من إثارة الفتن بينه وبين المشايخ والطلاب، وتصدى لكل الفتن في الأزهر واستكمل دروسه فيه ولم يترك تلاميذه، وعند عودته إلى المنزل كان يعكف على الاشتغال بغرائب الفنون التي دونها، والتقاط المعلومات من فوائد العلوم من الطب والفلك والرياضة، وكان يقوم ببعض التجارب الخاصة به في المنزل، بعدما استطاع أن يجلب بعض الأدوات من معامل الفرنسيين، وعكف ليال طوال يدون ويبحث ويسأل علماء الحملة الفرنسية عن أي غريب في تلك العلوم.

** **

كانت الشمس كلما أشرقت تداعب جفون رفاعة وهو ممدد على ظهر المركب، فيستيقظ ليملأ

عينيه برؤية مياه النيل الذي يجري حوله، ويشعر كأنه ماضٍ إلى قدر لا يملك فيه غير السعي ليكون أو لا يكون، فمازال يبحث عن فرصة السعي ليحقق ما يصبو إليه طموحه، وأخيراً هداه تفكيره على ألا يجعل من السودان منفى، بل سيحول تلك الرحلة إلى استثمار لجزء من طموحه كما فعل شيخه ولن يهمل ما بدأه.

يمد يده إلى جعبته ليخرج منها كتاباً تزين غلافه كلمات أجنبية، بعدما قرّر ألا يترك فكره وعقله ليأكله الفكر والصدأ، ولا يترك مداركه وموهبته لتتعطلا بسبب هذا المنفى، فلن ينسى للوالي عباس حلمي قرار نفيه هذا أبد الدهر، كما لم ينسَ فضل شيخه حسن العطار عليه، عندما اقتنع عزيز مصر محمد علي باشا بمنحه فرصة للتعلم بفرنسا، ليستفيد ويفيد بلده التي كانت تحت ظل رجل يريد أن يبني إمبراطورية قوية، ولهذا أرسل بعثاته إلى أوروبا ولم يثنه موعد بدء الدراسة في تلك الدول، فأصر على أن يرسل بعثته التي التحق بها رفاعة إلى باريس مهما كانت الظروف، نظر رفاعة إلى الكتاب الذي بين يديه، فاقترب منه أحد رفاقه وهو يقول:

- ما هذا يا شيخ رفاعة هل تقرأ كتباً أجنبية حتى بعد عودتك من بلاد الإفرنج؟

فنظر إليه رفاعة وهو يقول:

- مرحباً يا شيخ أبو العلاء إنها رواية مغامرات «تلماك» التي ألفها «القسيس الفرنسي فنلون» وهي مستوحاة من الأساطير التي كانت تتناولها العامة في أوروبا.

فنظر له الشيخ أبو العلاء وهو يقول:

- قسيس يؤلف.. كيف ذلك؟

ابتسم رفاعة وهو يقول له:

- وما العجب ففي بلاد الإفرنج كل شيء متاح، ثم إنه كان يعمل مربيًا لحفيد «لويس الرابع عشر الدوق دى بورجومى» ولقد صنفت هذه الرواية من روائع الأدب الرمزي الهادف، وقد جلبتها معي كي أعكف على ترجمتها.

فتعجب الشيخ وهو يقول:

- لله ردك يا شيخ رفاعة لا تضيع وقتك أبدًا، حتى في تلك الرحلة تبحث عن القراءة والترجمة.

فقال له رفاعة:

- الوقت من ذهب يا شيخ أبو العلاء لا بد من الاستفادة من كل لحظاته وإلا لن نجني غير الحسرات.

بعد بضع ساعات توقف بهم المركب مرة أخرى على شاطئ أحد البلدان، وكان ضوء النهار

قد بدأ يغلف الأجواء حولهم، فهبط رفاعة ومن معه إلى الشط وما إن خرج إلى اليابسة حتى لفته نسمة من هواء لطيفة، فملأ صدره بالهواء القادم من مساحة الأرض الخضراء على مرمى البصر، وقد شعر بأن صدره زال عنه بعض ما أثقله، فأخذ نفسًا عميقًا ملأ به صدره ورئتيه وأطلقه، وما إن زفر حتى وجد الهم والكدر الذي يصيبه بالاكتئاب قد زال، فأخذ يردد بعض الأبيات التي علقت بذهنه:

يـــا بعيـــد الـــدار عـــن وطنـــه
مفـــردًا يبكـــي علـــى شـــجنه
كلمـــا جـــد الرحيـــل بـــه
زادت الأســـقام فـــي بدنـــه

أخذ ينظر حوله حتى وجد على هذا الشط بعض البيوت الصغيرة، التي خصصها أصحابها لرواد المراكب المسافرة، فاستضافهم بعض أصحاب البيوت وقدموا لهم الطعام والشراب، وبعد الانتهاء تمدد رفاعة في المكان الذي أعده لهم صاحب البيت، وأخذ يتذكر رحلته إلى أرض النور باريس، وكيف كان محمد علي باشا يقاتل أمام رغبات الإنجليز، لإصرارهم على محو ثقافة الفرنسيين من مصر، وعدم رضاهم عن توطيد علاقته بهذه الدول.

وتمسك محمد علي باشا بموقفه الذي سجله التاريخ لهذا الحاكم العظيم، الذي أراد إشعال سعفة نور للتحضر في بلد أرادها وطنًا له ولعائلته، فلم يترك فرصة إلا واستغلها كي يثبت أرجاء حكمه، حتى عندما انتزع الأراضي من الفلاحين مما أصاب أهل رفاعة حينها وباقي الأعيان بالضرر بعدما أخذت منهم الأراضي، وثارت عليه حفيظة بعض القوم ومشايخهم، ولكنه كان يريد أن يجعل الدولة المصرية قوية من خلال استغلال مواردها، ولقد استطاع ذلك حتى صارت الدولة بقبضته قوية، وبعدها بدأ في محاسبة القائمين بالالتزام ودوائر الأوقاف وكل عُمدة النظام الاستغلالي في الزراعة، عندما علم أنهم ظلوا يحصلون الضرائب من الفلاحين لحسابهم الخاص، فأمر بحصر تحصيل ضريبة هذه الأراضي، ليعيد ما سلبوه من الفلاحين إلى خزانة الدولة، بعدما أغواهم في بداية الأمر بالاستثناء من تلك الضريبة، وكان يكتفي بأخذ ثلث هذه الحصة لحساب الدولة، وعندما دامت له القوة قام بفرض الضريبة على باقي الأرض التي يملكها الأثرياء، فثاروا وطالبوا باستمرار هذا الإعفاء وذلك الاستغلال، ووقتها ذهب إليه الشيخ عبد الله الشرقاوي واحتد النقاش بينه وبين محمد علي باشا، عندما قال له الشيخ عبد الله الشرقاوي:

- يجب يا باشا أن ترفقوا بالناس وترفعوا عنهم الظلم.
فنظر إليه محمد علي باشا، وفي عينيه نظرات اخترقت كيان الواقف أمامه وصاح:
- أتتهمني بالظلم يا شيخ شرقاوي؟ أنا لست بالظالم وحدي.. وأنتم أظلم مني، فإني رفعت عن حصتكم الضرائب والمغارم، وأنتم ما زلتم تأخذونها من الفلاحين لحسابكم.
ارتجفت أوصال الشيخ عبد الله الشرقاوي وهو يرد بتلعثم:
- تلك وشاية يا ولي النعم.
فقهقه الباشا بسخرية وهو يصيح به:
- وشاية كيف...؟ وأنا عندي دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفي كيس.
ثم صاح به ينهره قائلًا:
- اذهب يا شيخ شرقاوي وأخبر من أرسلوك، بأن عيني لن تغفل عن ذرة تراب في أرجاء المحروسة، ولا في ربوع دولة حكمي، اذهب ولا تعد إلى ذلك مرة أخرى.
وبهذا الرد أفحم محمد علي باشا، الشيخ عبد الله الشرقاوي ومن وراءه، لقد علم الجميع من قرارات عزيز مصر محمد علي باشا بأن نظره وقتها، كان أبعد من أن يصير البلد الذي يحكمه، مقسماً ومفتتاُ بين أيدي إقطاعيين وملتزمين أثرياء.

** **

تمتم رفاعة بحسرة وهو يتذكر ما كان يفعله علية القوم بالضعفاء من بني جلدتهم وسعيهم لحماية مصلحتهم أولًا، وعندها تذكر ما حكاه له شيخه عن قيام الشعب المصري بالخروج إلى الشوارع بدون تنظيم ولا خبرات، عندما قرّر أن يثور على نابليون أثناء انشغاله بنجاح الإنجليز في تدمير أسطوله في «خليج أبوقير» مما جعله يبدأ في إرسال برقيات مدد إلى فرنسا، ومكث تغلبه الشكوك والظنون لعدم وصول رد لبرقياته، وكان الفرنسيون في بادئ الأمر يرسلون بعض المراكب الصغيرة لتضليل الأسطول الإنجليزي، فلم ينجحوا في خداع قائد الإنجليز «نلسن» الذي كان يمتلك مهارة حربية كبيرة، وبدأ في البحث عن الأسطول الفرنسي حتى عثر عليه في خليج أبوقير ودارت بين الجيشين حرب بحرية كبيرة، انتهت بتدمير الأسطول الفرنسي، وأصبحت تلك الموقعة من أهم أمجاد بريطانيا في البحرية، وأصاب نابليون الحزن الشديد على هزيمته في تلك الحرب، ولكنه تظاهر بالتجلد واستمر في تقوية تمركزه في القاهرة واستكمل مخططه بدون أن يلتفت إلى سخط الأهالي وتذمرهم، حتى جاء يوم خرج سكان القاهرة للتمرد

والعصيان والثورة على الفرنسيين، لما فرضوه على القوم من الضرائب الباهظة، ولتدخلهم في شؤونهم لمعرفة الأملاك والأموال وحصر الزواج والإنجاب، واعتراضهم على هدم بعض المساجد لتحصين القاهرة، حيث علموا بقتل والي الإسكندرية «محمد كريم» مما جعل الخوف يسيطر عليهم فقاموا بالتمرد على أفعال نابليون وجنوده، وقد تسربت إليهم أنباء عن إرسال «الأستانة» جيشها لفتح مصر من جديد، وتوجسهم من قيام الإنجليز بالدخول إلى مصر فتصبح مصر رقعة حرب يتشرد أهلها وتصير ركاماً وخراباً بسبب أطماع الدول.

وصار الشيخ حسن العطار في مأزق، فهو مع الثورة والمصريين قلباً وروحاً، ولكن عقله أعلن التمرد لتتعطّل الاستزادة من العلوم الجديدة التي أتى بها الفرنسيين، واستمرت الثورة برجالها تقاوم وتجاهد، ولكن لعدم خبرتهم انهزموا أمام قوات نابليون الذي تحرك بسرعة وحنكة لصد هذا التمرد، وما هي إلا أيام حتى عاد كل شيء إلى موضعه، إلا من بعض المناوشات التي لا تذكر، وعندما قام بعض الشيوخ بمواجهة الشيخ حسن العطار لعدم اشتراكه معهم والتزامه منزله في تلك الفترة رد عليهم قائلاً:

ـ قلت لكم من قبل أن عدم الخبرة والكفاءة قد تقلب الأمور رأساً على عقب، وقد سمعتم من قبل عما حدث للشيخ عمر مكرم، ولكنكم أصررتم على العناد وقد رأيتم بأنفسكم ما حدث.

فصاح به أحد الجالسين قائلاً:

ـ لعلك تشمت في أهل بلدك يا شيخ حسن؟

فنظر إليه الشيخ حسن العطار وقد تملكه الغضب ولكنه سيطر على نفسه وهو يجيب الرجل:

ـ تلك افتراءات أشعتموها عني، كيف اشمت في أهلي وبلدي، وقد وهبت كل حياتي لخدمة هذا الوطن.

فقال آخر:

ـ إذن لماذا لم تشترك معنا في تلك الثورة ضد المحتل؟

فقال له الشيخ حسن العطار بهدوء:

ـ وما فائدة شخص جاهل بكل فنون الحرب بأن يشترك في تلك الثورة، أنا رجل علم وليس لي من أمور الدنيا غير تحصيل العلوم والدراسة.

فقال له أحدهم:

ـ ولكن على الأقل كنت سرت مع القوم في الصلح لدى الفرنسيس وقائدهم بونابرته؟

فنظر إليه الشيخ حسن العطار وهو يقول:

ـ الصلح على ماذا وقد جعل ما قمتم به جنوده ينتهكون حرمة الأزهر ومشايخه، وينهالون

بالقذائف على حي الأزهر طوال ليلة كاملة، وما تسبب من جراء ذلك من سفك لدماء الأبرياء، وفي النهاية اضطر المشايخ وغيرهم إلى الذهاب لنابليون وأظهروا له الخضوع، فما نالهم غير مهانة التأنيب والتعنيف الذي لا يليق بمكانتهم.

فصاح أحدهم قائلاً:

- إن نابليون هذا رجل كاذب ومخادع فرغم ذهاب المشايخ والأعيان له، فإنه مازال يقتل في أهالي حي الحسينية.

فقال لهم الشيخ حسن العطار:

- الرجل أمر بوقف إطلاق النيران فور وصول مشايخ الأزهر والأعيان إلى مقره، ولكن أهل الحسينية كما تعلمون يمتهنون الجزارة، وهي مهنة كما تعلمون تجعل المرء في غاية العنف والقسوة، وقد استمروا في القتال ولم يلتزموا بالمعاهدة التي اتفق عليها نابليون مع من ذهبوا إليه، ولم يتوقفوا حتى نفدت منهم أسلحتهم وبالتالي أذاقهم الفرنسيس نيران مدافعهم، حتى ألحقوا الضرر بالحي كله.

فقال له أحدهم بخبث:

- أعتقد أنه لا فائدة من الحديث معك فيبدو أنك تميل إلى مداهنة هؤلاء الفرنسيس.

وابتلع الشيخ حسين العطار تلك الغصة، باتهامه بالتزام جانب العدو والمحتل على مصلحة وطنه، ونظر إلى الجالسين وهو يقول في غضب مكتوم:

- إني أبرء إلى الله من تلك التهم التي يلقي بها الحاقدون عليّ، وسامح الله كل من يلوث سمعتي بتلك التفاهات، ويعلم الله أني أحب هذا الوطن وأحب الخير له، وما أفعله هو في سبيل أن تتغير بلادنا ويتجدد بها من العلم ما ليس فيها، ونحتسب ذلك عند الله وحده سبحانه وتعالى.

وترك القوم وفي نفسه ثارت عوامل الغضب والسخط، وهو يلعن في قرارة نفسه الجهل والتخلف الذي يلقي بصاحبه في بركان من الرجعية والسلبية.

** ** **

الفصل الثالث

-1-

وجهان لعملة واحدة

«للشجاعة سيف ذو حدّين وكلاهما ميثاق شرف»

وقفت المركب على شط بلدة «فرشوط» واستقبلهم أهل المكان بحفاوة، وقد نصبوا لهم بعض الخيام ليستريحوا بها، وبعدما استراحوا قرابة الساعتين، نادى عليهم أحد الرجال لينضموا إلى مأدبة طعام كبيرة، كان الليل يخيم على المكان غير أن القمر كان مكتملاً مما زاد المكان روعة، فجلسوا بعد تناول الأكل يتبادلون أطراف الحديث وقد ذكر رفاعة كفاح بلدة فرشوط أيام «شيخ العرب همام» وما إن جاءت سيرة شيخ العرب همام حتى بدأ الرجال في سرد حكايات كثيرة تصف شجاعة شيخ العرب همام في مواجهة المماليك، حتى استطاع هؤلاء الخونة خداع بعض من كان يثق فيهم مما أدى إلى قهر الرجل بطعنة الخيانة، فقال لهم رفاعة:

- إن محمد علي باشا استطاع هزيمة المماليك وإبعادهم وجعلهم يفرون إلى الجنوب والشمال، إلا أنه ظل متوجساً من خطورتهم لذا لجأ إلى خطة جديدة حيث يُظهر لهم نوعاً من التودد والتسامح، استمال بعضهم بالمال والمناصب والاستقطاعات، حتى استدرجهم للعودة إلى القاهرة ظناً منهم أنهم سيعيشون حياة رغدة، وكان ذلك هو الطعم الذي ابتلعه الكثير من المماليك ممن استجابوا للإغراءات والامتيازات التي أغراهم بها محمد علي باشا، فهم يطمعون دوماً في العيش في حياة رغدة ممتلئة بالترف بدلًا من المعاملة القاسية وقد أعيتهم المطاردات والحروب.

فقال له أحد الشيوخ الذين معه:

- ولكن لا تنس يا شيخ رفاعة ما فعله أيضاً مع كل من خالفه الرأي، حتى وإن كان كالشيخ عمر مكرم الذي كان سبباً في حكم محمد علي المحروسة.

طأطأ رفاعة برأسه وهو يتذكر ما فعله محمد علي، بالشيخ عمر مكرم، وسرح فيما حكاه له شيخه حسن العطار، وقد عاصر تلك الحادثة.

كانت الحياة في القاهرة وقتها تشهد تغيرات سياسية كبيرة، بعدما استطاع محمد علي باشا أن يستحوذ على حكم مصر، بعد مساندته لثورة الشعب المصري على الوالي العثماني «خورشيد

باشا» واجتمع قادة الأشراف برئاسة الشيخ عمر مكرم وكان مجتمعاً بالمشايخ والأعيان وكان معجباً بما قام به محمد علي لمساندته في مواجهة خورشد باشا، والأتراك والإنجليز الذين كانوا يساندونه، وأثنى الجمع على موقف الرجل معهم بشجاعة تستحق منهم كل الاحترام.

يومها اقترح أحدهم أن يكون هذا الرجل الهمام قائداً للجيش الذي سيدافع عن مصر،

فوافق عمر مكرم وكل الحضور وقرّروا أن يرسلوا إلى الأستانة بخطاب، يطلبون منهم تولية محمد علي القائد الألباني العرش خلفاً لخورشيد باشا، وطرح أحدهم سؤال مثيراً للحيرة فلماذا لا يتولى الأمر أحد المصريين؟ وكان رد عمر مكرم بأن لا أحد سيوافق على ترك مصري يحكم المحروسة، وخصوصاً أنه لا يوجد في المحروسة جيش يساند هذا الوالي المصري، ولا يعتقد أن تلك الدول المتربصة بهم ستترك الأمر هكذا، وإن لم يسرعوا باختيار محمد علي لربما وضعوا لهم غيره بالقوة، وهم مدنيون وشيوخ وتجار ليس لهم في أمور الحرب إلا قليل جداً، وذكّرهم بخوضه مثل تلك المواجهات منذ حكم المماليك وأيام نابليون وانتهى به الحال كما يعلمون.

واستمر الجدال بينهم ساعات طويلة، حتى استقر الرأي على إرسال رسول للقائد محمد علي ليحضر المجلس ليبايعوه جميعاً وما هي إلا ساعة، حتى حضر محمد علي وجلس بينهم ودارت بينهم المناقشات ثم أخبروه بما عزموا عليه، والتمعت عينا القائد الألباني فقد وصل إلى مبتغاه بذكائه وفطنته، وتمت له المبايعة ليكون والياً على المحروسة، ولكن بشروط من الشيخ عمر مكرم ومن معه، فما كان من محمد علي إلا الموافقة والانصياع لما يقرونه، واجتمع رأي المشايخ والأعيان على أن يتوالى حكم المحروسة، ولكن على أن يقتصر حكمه على تنظيم الأمن والجيش والعلاقات الخارجية، وأن لا يتدخل في أمور التجارة والزراعة، وأن تكون الأمور الداخلية من اختصاصهم، وقد قرّروا إنشاء مجلس مشورة ليقف على أي قرار له قبل تنفيذه، وعندما لمح محمد علي في أعينهم الترقب وفي أعين البعض الريبة، وكان يعلم أن فيهم من لا يرتضيه، أخبرهم بكل هدوء يشوبه بعض الدهاء بأن لهم ما طلبوا وأخبرهم بأنه سيكون تحت أمرهم لأنه يعلم أنهم أصحاب تلك البلد، وما يطلبونه هو حق مشروع، ولن يقوم بأي عمل بدون الرجوع إلى مجلسهم.

وبعد أن بايعه أعيان البلاد وشيوخها وأقباطها، أرسلوا رسولهم إلى الأستانة ليصدروا فرماناً بتوليه الحكم بمصر ويكون والياً عليها تحت سلطة الدولة العثمانية، وبدأ يُعمل ذكاؤه لاستغلال بعض ضعاف النفوس ليكسب ودّهم خارج مجلس عمر مكرم، وبدأ أيضاً في توسع علاقاته

بدول أوروبا رغم معارضة الإنجليز والأتراك لتلك العلاقات، وقاوم الضغوط التي عليه من الدولتين، وبدأ في خوض حروب داخلية ضد المماليك والإنجليز حيث فطن أنهم هم الخطر الأقرب، وبدأ في مطاردة المماليك بزعامة «محمد بك الألفي» الذي كان يساند الإنجليز.

ولكن السلطان العثماني شعر بما يخطط له هذا القائد الألباني، فأرسل إلى محمد علي يطلب منه السفر إلى ولاية «سلانيك» وعلم محمد علي أنه منفيٌ، فتظاهر بالامتثال لهذا الأمر وأرسل أنه سيستعد للرحيل، إلا أنه طلب مهلة لسداد الرواتب المتأخرة للجند الذين يرفضون رحيله قبل أن يحصلوا على مستحقاتهم، ولجأ إلى الشيخ عمر مكرم وأتباعه ليشفعوا له عند السلطان لإيقاف الفرمان، واجتمع المجلس بقيادة عمر مكرم ليناقشوا أمر الفرمان الذي صدر من السلطان العثماني بعزل محمد علي، واعترض الشيخ عمر مكرم على هذا التدخل في رغباتهم من قبل الأستانة، وأخبرهم بأنه لن يترك السلطان يعزل الرجل الذي ارتضوه، وقرّروا أن لا يعود إلى قصة خورشيد باشا مرة أخرى، فلابد لهم من موقف حازم، ونظراً للمكانة التي يحظى بها الشيخ عمر مكرم عند السلطان، اجتمع رأي الجميع على مراسلة السلطان وفوضوا الأمر للشيخ عمر مكرم ليتصرف كما يتراءى له، وبالفعل أرسل الشيخ عمر مكرم رسالته مع وفد من كبار المشايخ والأعيان، وعندما وصلت الرسالة مع بعض الهدايا التي حملها لهم محمد علي لتوثق علاقته هناك، ولجذب تعاطف البعض من الذين كان يودّهم في الأستانة تجاه المبعوثين، وقبل السلطان تلك الوساطة شريطة أن يلتزم محمد علي بمبلغ كبير يرسله له.

** ** **

-2-

الخيانة

ارتفع صوت أحد الرجال لاحتدام النقاش حول ما يتحدثون فيه، فانتبه رفاعة من شروده ونظر حوله وهدأ من حدة النقاش وبدأ في مشاركتهم الحديث، فالتفت إليه أحد أصدقاء رحلته وهو يقول:

- ولكن ما رأيك فيما فعل محمد علي باشا بعدما استقرت الأمور حوله، وقد فكر في حيلة للتخلص من كل القيود التي قد تعوق حركته في حكم المحروسة، فبعد التخلص من زعماء المماليك بتلك المذبحة وهروب الكثير منهم إلى الجنوب، وبالقضاء على حملة الإنجليز، كان لابد له من حرية لسلطاته حتى تصبح بدون قيد، وفي سبيل ذلك قرّر أن يزيح الزعماء الشعبيين من أمامه، وكان على رأسهم الشيخ عمر مكرم ورفاقه، ولم يشفع لهم تتويجهم له حاكماً

للمحروسة خلفا لخورشيد باشا ولا تزكيتهم له عند الأستانة عندما صدر فرمان بعزله.
نظر رفاعة لصديقه وهو يقول:
- للأسف أتذكر عندما اقتنص محمد علي بذكائه انقسام علماء الأزهر، حول قرار من يتولى الإشراف على أوقاف الأزهر، وانتهز محاولة عدد من المشايخ والعلماء بالأزهر محاولة التقرب إليه، واستغل الحقد الذي ظهر تجاه الشيخ عمر مكرم من بعض الأعيان والغيرة من زعامته، فاستمالهم محمد علي باشا بالمال والعطايا ليوقعوا بالشيخ عمر مكرم.
ثم بدأ يتذكر ما سمعه يومها من إعداد محمد علي باشا تقريراً وحساباً لكي يرسله إلى السلطان بالأستانة يشتمل على أوجه الصرف، ويثبت أنه صرف مبالغ معينة جباها من البلاد بناء على الأوامر، وكان في ذلك الوقت قد فرض ضرائب جديدة على الشعب، فهاج الناس ولجأوا إلى الشيخ عمر مكرم الذي وقف إلى جوارهم وتوعد محمد علي باشا بتحريك الشعب عليه بثورة عارمة، ونقل الوشاة الأمر إليه فقرّر أن يرسله إلى الدولة العثمانية مع كشوف الحسابات، فطلب من بعض الزعماء المصريين أن يوقعوا على تلك الكشوف كشهادة منهم على صدق ما بها، إلا أن الشيخ عمر مكرم امتنع عن التوقيع، فأرسل محمد علي باشا يستدعيه إلى مقابلته، فامتنع الشيخ عمر مكرم مقرّرا إن كان ولا بد من المقابلة، فليجتمعوا في بيت الشيخ أبو الأنوار السادات، وثارت حفيظة محمد علي عندما سمع ذلك واعتبرها إهانة له، فجمع مجموعة من علماء الأزهر والزعماء الموالين له، وأعلن خلع الشيخ عمر مكرم من نقابة الأشراف وتعيين الشيخ أبو الأنوار السادات بدلاً عنه، ولم يخش أن يثير هذا القرار حفيظة القوم، فأراد البعض أن يذكره بالأيادي البيضاء للشيخ عمر مكرم على الكثير منهم، وفطن محمد علي ما يرمي إليه المتحدث، وأخبرهم بأن الأيادي البيضاء لا تلوثها الخيانة، ثم أمر بنفي الشيخ عمر مكرم من القاهرة إلى دمياط.
يتنهد رفاعة وهو يعود ليتابع حديثه:
- اعتقد يومها أنه لم يكن أمام الشيخ عمر مكرم وقد انقسم من حوله غير تنفيذ النفي، ولم تمض شهور حتى بدأت تختفي من على الساحة فكرة الزعامة الشعبية الحقيقية، وحلّ محلها في نقابة الأشراف والأزهر الشريف، مجموعة من المشايخ الذين كان محمد علي باشا قادراً على السيطرة عليهم، إما بالمال أو بالاستقطاعات، وهم الذين أطلق عليهم الشيخ الجبرتي لقب مشايخ الوقت وقال فيهم: (افتتنوا بالدنيا، وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم، إلا بمقدار حفظ الناموس، مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء، وأخذوا الخدم

والمقدمين والأواني، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب في دوائر التزامهم الإقطاعية، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر المسائل الدنيوية، والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرئاسة، والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية).

ثم استطرد رفاعة وهو يكمل:

- وكما قلت هذه هي سياسة الحكم، ولكن بأسه في صد الإنجليز وهزيمتهم قد تشفع له، إلى جانب اهتمامه بتنظيم الجيش والاهتمام بالنهوض بالتعليم والحضارة التي يريد بناءها في المحروسة.

وقبل أن يتطرقوا إلى مواضيع أخرى، دعاهم قائد المركب إلى مكان النوم لينعموا بقسط من الراحة بعد طول الرحلة، ولأنه مازال أمامهم سفر طويل.

** **

استأذنوا من القوم ونهضوا ليذهبوا إلى الخيام المعدة للنوم، وتمدد رفاعة وأصدقاؤه وسرعان ما راحوا في سبات عميق من الرحلة المجهدة، لم ينعم رفاعة بنوم جيد في تلك الليلة، وعندما استيقظوا كان القوم قد أعدوا لهم مأدبة عامرة بخيرات الريف المصري، وبعد تناول الإفطار جلس القوم يحتسون مشروب الشاي الداكن، وبدأوا يتحدثون عن البطولات العظيمة لشيخ العرب همام، والتي تصف الشجاعة والإقدام له ولرجاله، فتناول رفاعة أطراف الحديث، وهو يحدثهم عن قرب الشبه بين محمد علي باشا وبين شيخ العرب همام، حيث الرجلان ناضلا لتخليص مصر من حكم وسيطرة المماليك الذي استمر قروناً، فقال له أحد الرجال باستنكار:

- يا شيخ كيف تشبه هذا الأفغاني الدخيل الغريب.. بشيخ العرب همام العربي الأصل المنشأ، الحسيب الشريف النسب إلى بيت رسول الله.

نظر له رفاعة وهو يقول:

- تشبيهي له.. ليس في نسبه ومكانته الاجتماعية، ولكن في قوة عزيمته وشجاعته وإقدامه في إدارة المعارك.

قال رجل آخر:

- ولكن محمد علي خائن رغم فروسيته، لقد قتل المماليك على حين غرة، وهذا ليس من طباع الفرسان.

نظر له رفاعة وهو يقول:

- من المؤكد أن ما فعله محمد علي باشا في تلك المذبحة ليس من طباع الفرسان، ولكنها السياسة وطبيعة الحكم والسيطرة، فلو كانوا هم المنتصرين لفعلوا أكثر من ذلك وتاريخهم شاهد على أفعالهم.

فنظر إليه أحد الرجال وكان يكبرهم سناً وقال:

- يا شيخ لقد كان فيهم من الدهاء ما جعل بعضهم يرفض دعوته في بداية الأمر، مثل «إبراهيم بك وعثمان بك» ورجالهم فلقد كانت لهم وجهة نظر أبعد، فلم يكونوا مطمئنين إلى هذا العرض، وفضلوا أن يبقوا في الصعيد.

شرد رفاعة وهو يفكر في قدرة هذا الرجل على القيام بتلك الفعلة الشنعاء من قتل النفس بكل هذه السهولة، يتذكر عندما حكى له شيخه حسن العطار عن تلك الواقعة بقوله:

- حكى لي أحد القادة الذين حضروا تلك الواقعة، عندما اجتمع بهم محمد علي باشا في أحد الأيام وقال لهم:

- لقد جاءني أمر سلطاني من السلطان العثماني، بتجهيز جيش للسيطرة على الحجاز، ولكني سأرسل إليه أتحجج بعدم استقرار الأوضاع الداخلية في مصر، بسبب الحروب المستمرة مع المماليك.

فقال له ابنه أحمد طوسون باشا:

- لكنك يا مولاي أعلنت التصالح مع المماليك.

نظر إليه محمد علي باشا وهو يقول:

- نعم ولكن هناك بضع ترتيبات لابد من حسمها، بعدها سأرسلك على رأس جيش إلى الحجاز.

فقال أحمد طوسن باشا:

- تحت أمرك يا ولي النعم.

فنظر محمد علي باشا إلى الحاضرين قائلاً:

- رغم علمي بأن تجهيز جيش في هذا الوقت سيضعف قواتنا ويجعلنا في خطر كبير، وسيؤثر على استقرار الأوضاع في المحروسة مع وجود المماليك بالقرب من المحروسة، وقد يشجعهم ذلك على استغلال الفرصة لينقضوا على قواتنا؛ ولكن لدي تصريف لذلك.

فقال له أحد قواده:

- كما تريد يا ولي النعم نحن تحت أمرك فيما تراه.

ولم يمض شهر حتى أعلن محمد علي باشا، عن بدء تجهيز حملة بقيادة ابنه أحمد طوسون

للذهاب إلى الحجاز، ولجأ محمد علي لحيلة ماكرة جهنمية، فأعلن عن احتفال في القلعة بمناسبة إلباس ابنه أحمد طوسون خلعة قيادة الجيش الذي سيذهب للقتال مع صفوف الدولة العثمانية، وقام بإرسال دعوة للأعيان والعلماء والمماليك لحضور الاحتفال فلبى الجميع الدعوة، وما إن انتهى الاحتفال حتى دعا محمد علي المماليك إلى السير أمام موكب وداع ابنه، ولما وصل المماليك إلى الطريق الصخري المنحدر من القلعة أمر بإغلاق أبواب القلعة، وفوجئ المماليك بسيل من الرصاص ينطلق من الصخور، وخلفهم أحاط جنود محمد علي بالمماليك من كل جانب، وأمطروهم بوابل من الرصاص قضى عليهم، ومن تبقى منهم في القاهرة انسحب فاراً إلى الصعيد ومنه إلى دنقلة بالسودان، وكان في هذا اليوم يحتفل الشعب المصري كل عام بعيد «وفاء النيل» فانتهز محمد علي انشغال القوم بهذا الاحتفال ودبّر مكيدته للإيقاع بالمماليك، وأوقع بهم في فخه الذي كاد أن يقضي عليهم عن بكرة أبيهم، مما اضطر من لم يحضر واستطاع الهرب من القاهرة، للانسحاب حتى وصلوا إلى الصعيد. وبعد ذلك أصبح لمحمد علي باشا كامل السيطرة على مصر، ثم تفرغ لخوض الحروب بالوكالة عن الدولة العثمانية في جزيرة العرب ضد الثوار اليونانيين وغيرهم من الثائرين على الحكم العثماني في «المورة»، وبعد ذلك قام بتوسيع دولته جنوباً، فضمّ إليها السودان وكان يسعى لتوحيد كل الأمصار تحت حكمه، وبناء إمبراطورية قوية بمواردها، وصنع جيشاً قوياً كاد أن يهزم الدولة العثمانية بقيادة ابنه إبراهيم باشا، حيث بدأ في محاربة جيوشها في «الشام» و»الأناضول» حتى كاد يسقط الدولة العثمانية، لولا تعارض ذلك مع مصالح الدول الغربية التي أوقفت محمد علي، وأرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي ضمها إليه في طريق حربه ضد العثمانيين.

انتبه رفاعة فجأة على صوت أحد الرجال وهو يدعوهم لتناول الغذاء، وما أن قام رفاعة ومن معه لتلبية الدعوة، حتى وجدوا القوم قد أعدوا لهم وليمة تليق بكرم أهل الصعيد، وبدأ الرجال تناول طعامهم وبعدما انتهوا، استأذنوا في الرحيل حتى لا يداهمهم الوقت.

** ** **

الفصل الرابع

-1-

بلاد النور

أصبـو إلـى كل ذي جمـال
ولسـت مـن صبوتي أخاف

بدأ المركب يترك شاطئ فرشوط وظل يبحر في النيل متجهاً جنوباً، حتى رسا أخيراً بعد مسيرة بضع أيام على مشارف قرية صغيرة، يشتهر أهلها بصيد الأسماك وبيعه إلى البلاد المجاورة لهم، ولم يجدوا بها ما يصلح لمبيتهم أكثر من ليلة، فقد كان بها بعض الخيام المتهالكة، وأعشاش من البوص لا تليق بآدميين، ولكنهم من كثرة التعب استسلموا للواقع، وقضوا ليلتهم في ذلك المكان المتواضع، ولم يغمض لرفاعة جفن من وحشة المكان، فأخذ يتذكر عندما توسط شيخه حسن العطار عند محمد علي باشا، لكي يرسل بعض المصريين مع تلك البعثة إلى فرنسا، وعندما وافق كان رفاعة أول من رشحه شيخه، ولم يكن ترشيح رفاعة بين طلاب البعثة كطالب، بل كان ليقوم بدور الوعظ والإرشاد للمبعوثين، ورافقه في هذه المهمة الروحية شيخان آخران من شيوخ الأزهر، وحينها استغل محمد علي باشا وجود باخرة حربية ترسو على شواطئ الإسكندرية، فأرسل لطاقمها ليقنعهم بمرافقة هؤلاء المبعوثين معهم إلى مارسيليا ومنها إلى فرنسا، فلقد كانت عنده عزيمة تجعله إذا أراد شيئاً، سخُرت له الإرادة من الله لأجل مسعاه، فأقام لهم احتفالية ضخمة، تليق به وبمسيو «روبيلار» قائد الباخرة الحربية وبكل طاقمها، وكان الطعام والشراب يوزع عليهم ببذخ، وعلت بالحفل أصوات الضحكات، والغناء واللهو حتى الصباح، وفي اليوم التالي جلس رُبَّان الباخرة إلى الباشا محمد علي باشا الذي ابتدره قائلا:

- اعلم مسيو روبيلار أنني أريد أن تصحب معك في هذا الرحلة، بعض المبعوثين من أبنائي إلى فرنسا، لكي يتحصلوا على العلوم هناك، وأطلب منك أن تتفضل بالموافقة على اصطحابهم معك.

تنحنح رُبَّان الباخرة وهو يقول بكل احترام:

- على الرحب والسعة يا سيدي، رغم أنك تعلم أن الباخرة حربية وليست مدنية لحمل الركاب، ولكنني أمام كرمكم وحسن ضيافتكم لنا ونحن ممثلون لدولتنا فإني أوافق.

قهقه الباشا محمد علي باشا كعادته وهو يقول:
- اعلم يا مسيو روبيلار أن دولتكم هي صديقة لنا، ونحن نحافظ على تلك العلاقة بيننا، وأنك هنا ضيف عظيم المقام في كل الأحوال.
أومأ الرُبَّان برأسه وهو يقول:
- دامت دولتكم يا سيدي، وإني أشكرك بالأصالة عن نفسي وعن كل طاقم سفينتنا.
وأمر محمد علي باشا بأن يتجهز المبعوثون لكي يذهبوا إلى السفينة التي ستحملهم إلى فرنسا، بعدما وافق رُبَّان السفينة على طلبه.
لم يتقبّل الكثير من شيوخ الأزهر ولا أقران رفاعة فكرة سفره إلى باريس، وعلى رأسهم أمه وزوجة خاله وابنتها كريمة، التي أحبها أكثر من أي شيء، وكان في ذلك الوقت قد أعلن عزمه على الارتباط بها، وأخبر أمه وخاله بما في صدره ناحيتها، وفرحت أمه بتلك الزيجة وأتت من مسقط رأسه طهطا، تحمل معها الأماني وكل ما طالته يديها من مصاغ، وباعت له ما كانت تملكه من إرث، وشدّت الرحال من طهطا إلى القاهرة، يرافقها في تلك الرحلة أحد أخوتها، الذي جاء معها لكي يخطب من أخيه الشيخ محمد ابنته كريمة لرفاعة، وكانت البهجة تعمّ بيت خاله الشيخ محمد الأنصاري، ولكن رفاعة هو الوحيد الذي انقسمت فرحته إلى قسمين، فرحته بخبر سفره الذي أخبره به الشيخ حسن العطار، بعد ترشيحه له دون غيره من بين كل طلابه للسفر إلى فرنسا بلد النور والعلم، وفرحته الثانية بقرب الوصال من بنت خاله كريمة، تلك الأنشودة التي يترنّم بها في ليله وصباحه، فهي الإنسانة الوحيدة التي ملأت عليه حياته في غربته عن مسقط رأسه طهطا، فكانت السكن والملاذ كلما ضاق به الحال، فكم كانت تحلو له الأوقات التي كان يقضيها في زيارة بيت خاله محمد الأنصاري، ذلك الخال الذي أغدق عليه من كرمه وعلمه ولم يبخل عليه من كل معارفه وماله، وناصره وسانده حتى أتم دراسته في الأزهر الشريف وأصبح أحد شيوخه النابغين.

** **

كان رفاعة قد أخذته سنة من النوم ولم يشعر بنفسه حتى صدح صوت مؤذن لصلاة الفجر، فنهض لكي يتوضأ ويصلي، ووجد بعض أهل العشش والخيام قد بدأوا في الانتشار بمراكب صغيرة في عرض النيل لكي يجلبوا شباكهم، فجلس ونظره يشرد إلى الأفق وهو يتذكر كيف كانت أمه غير راضية عن سفره إلى باريس، ولا متخيلة احتمال فراق ابنها مرة أخرى، بعدما أصبح أخيراً واعظاً ومدرساً بالأزهر الشريف، فكيف إذاً يتركها بعد أن ضحت من أجل

تعليمه، بقدر ما تمتلكه من حنان الأم بقرب ابنها منها، وكانت تقدّم مصاريفه على احتياجاتها. يومها غضبت منه أمه الطيبة بل وقرّرت أن تعتزل في بيتها بطهطا طول فترة غيابه، وأعلنت لأخيها الشيخ محمد الأنصاري موقفها قائلة:

- لقد عزمت على أن أخرج من بلدتي مرة أخرى، ولن أبرح داري في طهطا مدة غيابه وإن طالت أو قصرت في بلاد الإفرنج.

فربت عليها الشيخ محمد الأنصاري وهو يقول:

- إن ابنك سوف يكون له شأن عظيم عند عودته، وبدلا من أن تغضبي ادعي له بالتوفيق حتى ييسر له الله رحلته.

فنظرت إليه، وعيناها مغرقتان بالدموع وهي تقول:

- أنت تعلم أن قلبي لا يطاوعني أن يقسو عليه، ولا أستطيع تصور عدم رضائي عنه، ولكنها وحشة الغياب ولوعة الفراق يا شيخ محمد، لقد أخذته أنت وكان مازال صبياً، وتحمّلت فراقه لحبي أن يكون من علماء الأزهر الشريف، وعندما صار مدرساً وواعظاً فرحت به، ولقد جئت إلى المحروسة لكي أخطب له ابنتك ليكمل نصف دينه، وأنت تعلم أنه كانت لديه رغبة بها، وبعد كل هذا تقول لي اصبري.

ابتسم الشيخ محمد في هدوء كعادته وهو يقول:

- هذا شأن كل الأمهات، فأنتِ لم تعلمي ماذا فعلت زوجتي بعدما علمت بتأجيله موعد ارتباطه بابنتي لحين عودته، ولم تعلمي حال ابنتي كريمة الأخرى وما أحاول جاهداً أن أقنعهم به.

تمتمت ومازالت دموعها تذرف:

- وهل تجد لهم الأعذار ليقتنعوا بها، فمعهم كل الحق في غضبتهم.

ربت عليها وهو يتنهد قائلاً:

- إنها ليست بغضبة، ولكنها وقع المفاجأة عليهم، وكانوا على يقين بحب رفاعة لابنتي كريمة وكيف كانت لهفته ليتزوجها، ولكن مشيئة الله فوق كل شيء، فأنا أتمنى له النجاح والتفوق وأن يصبح عالماً من الذين درسوا في بلاد النور باريس، ويشهد له الجميع بالتفوق والإجلال، ويومها سيفخر كل من ينتسب له ويشعر بالعزة والكبرياء.

ولكن رغم ذلك لم تقتنع الأم، وعند عودتها إلى موطنها طهطا، نفّذت ما وعدت به، وأغلقت دارها على نفسها، ولم تبرح طهطا طول مدة غيابه عنها.

** **

انتبه فجأة رفاعة على صوت جلبة في الخارج، فنهض وخرج ليجد الصيادين قد عادوا من رحلة صيدهم، وبدأوا في تفريغ مراكبهم الصغيرة من ما رزقهم الله من أسمالك البحر، كان منظر الشروق على الشط جميلاً، والصيادون كُل يسعى إلى رزقه، فذهب رفاعة لزير موضوع على حامل أمام الخيام فتوضأ، ووقف ليصلي الضحى، وما هي إلا لحظات حتى لحق به رفاقه وكل منهم ذهب ليتوضأ ويصلي، وعندما انتهوا كان أصحاب الخيام قد أعدوا لهم فطورهم، وما إن فرغوا حتى نادى عليهم صاحب المركب ليتأهبوا للرحيل، وصعدوا إلى المركب التي شرعت في سيرها، وجلس رفاعة بين أصحاب رحلته وقد أخذوا في تجاذب أطراف الحديث، فقال أحدهم:

- أتعلمون أن بلادنا يكثر فيها الخير، وتحوي موارد كثيرة غير الزراعة.

فرد آخر:

- أتقصد ما يلقيه النيل من ثروة سمكية.

ابتسم رفاعة وهو يقول:

- إن مصر من أغنى الدول، بثرواتها الزراعية والسمكية والحرفية، ولكن أهلها فطروا على الفلاحة في الأرض والزراعة دون غيرها، كأنه إرث يوصم بالعار من يتركه، ولا يجوز التخلي عنه.

نظر إليه أحدهم وهو يقول:

- ولكن هناك ما يمتهنه أصحاب الحرف من صنائع جميلة.

قال لهم رفاعة وهو ينظر إلى المجهول حوله:

- إن بلادنا بها من التطور العمراني ما بهر العالم أجمع، ودليل ذلك ما تركه لنا المصريون القدماء من آثار، فقد حيروا العالم وسيظل في حيرته عن الكيفية التي استطاع بها القدماء المصريون بناء وتشييد المعابد والمسلاّت والأهرامات التي هي خير دليل على ذلك، فمصر بها من التمدن ما سبق العالم أجمع، ولكننا لا نلتفت إلى ما بين أيدينا من كنوز.

نظر إليه أحدهم وهو يقول:

– صدقت والله يا شيخ رفاعة، لقد سافرنا إلى فرنسا، لنتعلم أساليب التمدن والحضارة، ونحن أحق بدراسة ما بين أيدينا.

ابتسم رفاعة وقد علت ابتسامته المرارة وهو يقول:

- لقد صدق الشيخ حسن العطار، لقد أخذوا منا المعارف والعلوم، ودرسوها وطوروها، وها

نحن نذهب إلى بلادهم سعياً لتحصيل العلوم، التي هي في الأصل ملك لنا، صدق حقاً عندما أخبرني بأن ما لديهم من علوم هي بضاعتنا، ومن واجبنا استردادها مرة أخرى.

ابتسم آخر وهو يقول:

- فعلاً إن ما توصلوا إليه هو نتاج تراثنا وعلومنا.

يجيبه رفاعة وهو ينظر إليهم:

- للأسف ليس عندنا بعد من يهتم بما بين أيدينا من حضارة، حيث إننا غارقون في الخرافات والشعوذات التي رسخها فينا بعض هؤلاء المحتلين، لكي يعطّلوا مداركنا ويقضوا على أي بصيص من نور لاكتشاف قيمة ما بين أيدينا، ومن يحاول الخروج من ذلك التيه يلقون به في غياهب المنفى.

يلمح أحدهم المرارة والحزن الذي اعترى رفاعة، فيوجه حديثه له محاولا تخفيف الحزن عليه:

- كلٌ بقضاء الله يا شيخ رفاعة وأنت مؤمن بذلك، حتى رحلتنا إلى باريس كانت قضاء من الله، ولولا أنك اجتهدت وتعلمت، لكنت عدت منها كما ذهبت واعظاً وإماماً للبعثة مثلنا، ولكن اجتهادك وسعيك جعلك تصل إلى مرتبة العلماء بيننا، وقد كرّمك عزيز مصر الباشا محمد علي.

تمتم رفاعة وهو يقول:

- كرّمني محمد علي باشا لعلمه بأهمية ما تحصّلت عليه وتقديره له، لقد سمح لي بإنشاء مدرسة الألسن والتي خرّجت طلاباً مجتهدين، ولقد سمح لي بجمع آثار مصر التي يجدها المصريون، ووضعها في مكان يكون مزاراً لكل محب للتاريخ، ولكن جاء بعده من سعى بكل جهده ليحاول القضاء على كل ذلك.

ربت عليه أحدهم وهو يقول:

- هوّن عليك يا شيخ رفاعة نحن نرتحل من قضاء الله إلى قضاء الله سبحانه، فمن يعلم إن كنت ما زلت تقيم في المحروسة، ما الذي كان سيفعله معك الوالي عباس حلمي، احتسب ما اكتسبته من رحلة فرنسا إلى الله، وهو قدير على تغيير الضار بالصالح.

يتمتم رفاعة بينه وبين نفسه، وهو يستأذنهم ليجلس في رُكن المركب، ويسرح بفكره نحو فرنسا بلاد النور والعلم.

** ** **

-2-

لا ترويت

عندما جاء موعد السفر إلى الإسكندرية، تأهب رفاعة ومن معه من المبعوثين إلى أول خطوات الرحلة التي تبدأ من الإسكندرية، وركب زورقاً صغيراً متوجهاً هو ومن يُرافقه إليها، واستمر الإبحار على سطح النهر أربعة أيام حتى وصلوا، وهناك مكثوا فيها ثلاثة وعشرين يوماً في سراية محمد علي باشا، وطوال تلك المدة كان خروجهم إلى مدينة الإسكندرية قليلاً، فلم يسهل لرفاعة تذكر الكثير مما فيها، غير أنه لاحظ أنها قريبة الميل في أحوالها إلى عادات الأوربيين، رغم أنه لم يكن قد رأى هذه البلاد، ولكنه سمع عنها وشاهد سلوكهم في المحروسة بعدما بقى فيها بعض منهم، ولكن ما رآه من اختلاف في الإسكندرية أثناء مروره بشوارعها، وجده يختلف عن باقي ما زاره من البلاد المجاورة للمحروسة، وكان ذلك طبيعياً لوجود كثير من الجنسيات الأوربية فيها، وكان أغلب التجار يتكلمون اللغة الإنجليزية والتركية وقليلاً من اللغات الأخرى.

في اليوم الرابع والعشرين، وبعد انتهاء مدة إقامتهم بالإسكندرية، كانت تنتظرهم الباخرة «لا ترويت» التي ستبحر بهم إلى بلاد النور حيث الحلم، فتهيأ أفراد البعثة لمرافقة الباخرة الحربية لتحملهم من ميناء الإسكندرية إلى مرسيليا، وأبحرت بهم وهم صائمون في شهر رمضان، وخفّف عنهم صيامهم، الجو اللطيف والريح الخفيفة، التي جعلت الباخرة تسير بهم في هدوء، ولم يكن يعلم أحدهم شيئاً عن السفر على متن تلك البواخر، ولم يعبئوا بذلك لأنهم لم يركبوا المحيط من قبل، وفكر رفاعة مع بدء الابتعاد عن المحروسة، بألا يكون إماماً وواعظاً لهذه البعثة فقط، بل عزم على أن يكون أكثر من واعظ وأكثر من إمام ومرشد في أمور الدين، وملأ التفاؤل كيانه متمنياً أن يكون بعد هذا الفراق، انتصار للعلم والمعرفة، وشرع بعد إبحار الباخرة من الإسكندرية، في البحث عن طريقة ليتعلم مبادئ اللغة الفرنسية، وأخذ يستفسر من طاقم السفينة ممن يفهمون اللغة العربية بالكاد، عن كيفية تعلم اللغة الفرنسية وقد تملكته الهمة العالية والعزيمة الصادقة.

فكان يريد أن يبدأ فور وصوله إلى فرنسا بالاطلاع والبحث عما قد سمعه من الشيخ حسن العطار، من علوم الفرنسيين وفنونهم التي اقترب منها شيخه، وكانت تتردد في داخله دوماً مقولة أستاذه وشيخه: (إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم ما ليس فيها) وأخذت الباخرة تسير بهم أياماً، وفي احد الأيام عصفت الرياح، وهاجت أمواج البحر فتلاعبت بالباخرة، وارتجف هو ورفاقه لعدم خوضهم مثل تلك الرحلات البحرية، وشعروا كأن الأشباح والأرواح

حضرت لتحطم الباخرة، فانبطح أكثرهم على الأرض، و توسل هو ومَن رافقه من الشيوخ برسول الله صلى الله عليه وسلّم، وصار قولهم: (يا رسول الله أجرنا) وعندما استقرت الباخرة، وشرعت في الإبحار مرة أخرى في طريقها، تذكر هو قول أحد الظرفاء وأخذ يردده: (خاطرَ من ركب البحر، وأشد منه خطراً من جالس الملوك بغير علم ومعرفة)

ثم أنشد:

لمـــا ركبنـــا ببحـــر
وكاد مـــن خـــاف يتلـــف
علـــى الكريـــم اعتمدنـــا
حاشـــــاه أن يخلـــــف

وتذكر قول العلامة «الصفتي» وذِكره لهزل «أبي نواس» فأخذ يردد:

رأيت جميع الهائلات محيطة
بوطئي لأجل الحمل جارية البحر
فأقسمت عمري لا ركبت سفينة
ولاسرت طول الدهر إلا على الظهر

وانبهر بما رأى على ظهر الباخرة من دقة الحِرف ومهارة الصنع، ووجد كل ما يحتاجه الإنسان من طعام وشراب وأيضاً كان بها آلات للحروب، وكانت محصنة بثمانية عشر من المدافع، وما أدهشه هو حب النظافة الظاهرية عند الأجانب ممن معه على ظهر الباخرة، فكل العاملين بها يحرصون على تنظيفها، وإزالة الأوساخ عنها بكل عناية، وقد شاهدهم وهم يكنسونها ويغسلون مقعدها كل يوم، وينفضون الفراش ويخرجونه إلى الهواء، ويزيلون ما به من آثار نومهم، وكأنهم يطبقون مبدأ النظافة من الإيمان، رغم أنهم غير مسلمين.

وشرع في تدوين كل ملاحظة يراها، وكل شاردة تمر أمام عينيه التي كانت تتفتح لأول مرة على عوالم جديدة، ولهذا زاد إصراره في البحث عمن يعلمه اللغة الفرنسية، لكي يستطيع نطقها بطريقة صحيحة، رغم تعجب كل من يرافقه مما يفعل.

ومرَّت الباخرة أثناء عبورها بالبحر الأبيض المتوسط على ميناء بجزيرة «صقلية» يُسمى ميناء «مسينة» فمكثت به قرابة الأسبوع، لم يغادره أي أحد من أفراد البعثة لهيبتهم تلك البلاد، ولكن رفاعة كان لديه شغف بمعرفة تلك البلاد وما تحوي، وطموحه ظل يتحرك كجنين، فكان يتسلل إلى سطح الباخرة كي يستكشف هذه العوالم الجديدة، وصادف أن أهل مسينة تلك

كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم، والتي تُدَق فيها أجراس الكنائس بالمدينة، فتفجرت في مخيلته الاحتفالات في بلده مصر ومسقط رأسه طهطا، ودفعه ارتباطه بالموروث، لتتحرك غريزته وميله إلى طقوس الاحتفالات، فنظم شعراً هو وأحد رفاقه، وكأنه يريد أن يشارك أهل البلدة احتفالهم، ولكن بطبيعته الشرقية فكتب يقول:

أصبـو إلـى كل ذي جمـال

ولسـت من صبوتي أخاف

** **

أخذ يتنهد وهو يتذكر كيف انطلقت مشاعره وأحاسيسه، للتطلع واكتشاف هذا العالم الجديد، الذي يدنو منه إلى بلاد الفرنسيين، وقد سمع أنهم لا يُمكّنون الوافد إلى بلادهم من دخولها، إلا بعد مروره بحَجْر صحي يسمى «الكرنتينة» وهي مكان حجر صحي يمكث فيه الوافد أياماً، حتى يتأكدوا من عدم إصابته بأي وباء، وسمع أنهم يُوفرون لهم فيه كل ما يحتاجونه، وحرصاً على الوقاية، كانوا يتناولون ثمن ما يقدّمونه لهم من نافذة، ثم يضعون النقود في وعاء به خل وبعض المنظفات لتطهيره.

وظلوا بهذا الميناء خمسة أيام، لم يخرج منهم أحدٌ إلى أرض البلدة، وكانوا يشاهدون من بعيد قصورها العالية وهياكل مبانيها، وقد رأوها توقد القناديل لإضاءة الشوارع قبل أن يدخل حتى وقت الغروب، ولاحظ أنها تظل موقدة حتى شروق الشمس، وقبل رحيلهم تزوّد طاقم الباخرة من هذه المدينة بكل ما احتاجوا إليه، وعندما غادرت بهم الباخرة، حاذت ناحية جبل قالوا إن اسمه «جبل النار» ثم مروا على مدينة «نابلي» وبعدما تخطُّوها بمسافة، انعكست الريح وصار في مواجهة الباخرة، مما اضطرهم إلى العودة إلى مدينة نابلي ورست الباخرة بها ولم ينزلوا منها أيضاً.

أغمض رفاعة عينيه وهو يتذكر عندما قرأ عن نابلي فيما بعد، فعلم أنها من المدن العظمى ببلاد الإفرنج، وملكها يحكم بلاد جزيرة «صقلية»، وهي تعتبر كرسي الملك لهذه البلاد المجاورة لها، وقد قرأ أيضاً أنها كانت قديماً في يد المسلمين مدة مائتي سنة، ثم تغلب عليهم النصارى «النورماند» واستولوا عليها هي وممالك صقلية، ولم تزل حتى ذلك الوقت في أيدي النصارى الإيطاليين، حتى إنها تسمى بلاد إيطاليا الجنوبية.

-3-

مرسيليا

كان رفاعة ينظر إلى مياه النيل بعينين شاردتين، وهو يتذكر شق الباخرة لا ترويت لمياه البحر الأبيض المتوسط، حينها كان يشعر كأنه في فُلك سيدنا نوح، مع من سيعمرون الأرض بعد الطوفان.

يتنهد وهو يقلب ذكرياته وتمتم:

- يا لطوفان الجهل والتخلف، الذي ألقي بي الآن إلى أرض البوار، وإلى مجهول لا أدري إلى أين ولا إلى متى.

عاوده الاسترسال لاستكمال تذكره لرحلته إلى أرض النور، فعندما هدأت الأحوال أبحرت بهم الباخرة من جديد، حتى مروا على جزيرة «قرسقة» والتي كانت تحت حكم الفرنسيين، وقد سمع أنها وطن نابليون بونابرت وعمل أبوه رئيساً للطوبجية فيها، وكانت تسمى بجزيرة «قرس» وقد فتحها المسلمون، ولم يمكثوا فيها زمنا طويلاً.

بعدها تركت الباخرة لا ترويت جزيرة قرس في طريقها إلى «مارسيليا» وبعد رحلة استمرت أكثر من شهر على سطح الماء، وصلت الباخرة إلى مرسيليا، ورست أخيراً على أحد الشواطئ المخصصة لصيانة البواخر، وكان في انتظارهم على شط مرسيليا زوارق صغيرة، ركبوها حتى وصلوا إلى شاطئ نزول الركاب، والذي كان بالقرب منه مكان خارج المدينة معدّ «للكرنتينة» حيث لابد أن «يكرتن» بها أي وافد قبل الدخول إلى المدينة، ورأى فيه رفاعة قدرة هؤلاء القوم على إحكام أبنية هذه البلاد وإتقانها، واهتمامهم بالحدائق المعدة للتريض، والتي توجد بها أحواض المياه العذبة، ووجد بها خدماً من الفرنسيين، ولاحظ أن مكان الكرنتينة هذا متسع جداً، وبه بعض المباني الصغيرة والحدائق وأبنيته محوّطة بسور، ولاحظ أن به الكثير من الكراسي للجلوس عليها، فعلم أن أهل هذه البلاد لا يميلون إلى جلوس الإنسان على سجادة مفروشة بالأرض.

وبعدما استراح أفراد البعثة بالكرنتينة دعاهم المشرفون إلى الطعام، ولاحظ رفاعة أن ما يأكلون عليه ليس «كالطبليات» التي يعرفها، ولكنها مناضد عالية بعض الشيء حيث أن أرجلها العالية تكاد تصل إلى نصف قامة الإنسان، ويطلقون عليها اسم «السفرة» ويضعون عليها أطباقاً بيضاء، وأمام كل طبق قدح من الزجاج، وإناء فيه ملح وآخر به فلفل مطحون، وسكّينة وشوكة وملعقة وزجاجة ماء، والكراسي تلتف حول تلك السفرة لكل شخص كرسي خاص به،

ثم جاء الخدم بالطعام المطهو فوضعوه على السفرة في وعاء كبير، ليغرف منه أحدهم ويقسّمه على الجميع، فيعطى لكل فرد في طبقه شيئاً من اللحم، ثم علّمهم المشرف كيف يقوموا بتقطيعه بالسكين التي أمامهم، ثم يلتقطونه بالشوكة لا بأيديهم، وأخبرهم أن في هذه البلاد لا يأكل الإنسان بيده، ولا بشوكة غيره أو بسكينه أو بقدحه، لأن هذا أنظف وأصح للإنسان.

وتعجّب رفاعة جداً مما يشاهده من عادات هؤلاء القوم، فهم لا يأكلون في «صحون نحاس» ولا في آنية مصنوعة من الفخار، ولاحظ أن للطعام عندهم نظاماً معيناً، فأول افتتاحهم للطعام يكون بالشوربة ثم بعده باللحوم، ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة المطهوة من الخضراوات، يتخللها تناول ما يسمونه سلطة والتي أعدت من تشكيلة من الخضروات، ولها نكهة ورائحة زكية، وكانت الأطباق أمامهم كأنها مطلية لتناسب أنواع الطعام الذي يوضع فيها، فأطباق السلطة مثلا خضراء منقوشة بلون السلطة، ثم ينهون طعامهم بتناول الفواكه، والقليل من شراب مخدر، ثم يختمون مأدبة طعامهم بالشاي والقهوة، ولم يشرب رفاعة ولا أصدقاؤه من المشايخ من ذلك المشروب المخدر، واكتفوا بشرب الشاي والقهوة، وعلم بعد ذلك أن هذا هو نظام الطعام للغني والفقير.

وعندما حلّ المساء أعدوا لهم غرفاً بها فراش نظيف، ولاحظ رفاعة أنهم لا ينامون على الأرض، ولكنهم ينامون على شيء مرتفع يسمى سريراً، فكان لكل واحد منهم سرير من الأسرّة التي في الغرف، مفروشة بملاءات بيضاء نظيفة، وأخذ رفاعة يدوّن كل ما يراه من عادات أولاً بأول.

وظلوا قابعين في هذا المكان ثمانية عشر يوماً لا يخرجون منه أبداً، فيقضون أغلب وقتهم في حدائقه الجميلة وبدأ رفاعة يلتقط بعض كلمات اللغة الفرنسية، وانضم إلى أفراد البعثة في تعلم اللغة الفرنسية، لأن أغلبهم لايعرفون اللغة الفرنسية.

** **

أخذ رفاعة يتأمل ما حوله وهو يتذكر رحلة شيخه حسن العطار، عندما حكى له عن كيفية ترك مصر ليهرب من الظنون والتهم التي رموه بها، وقد ظل قبل رحيله معتزلاً في بيته، يعكف على تجاربه ودراسته لكل ما طالته يده من علوم الفرنسيين، وكان يقضى أغلب الليل بين تلك التجارب والقراءة وينام قليلاً، وعندما اشتد عليه الضغط النفسي من أفعال بعض المتربصين الكارهين لتفوقه، كان يعتزل الذهاب إلى الأزهر الشريف بالأيام، وكانت سلواه في الجلوس

مع صديقه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وكان بين الحين والآخر يزوره بعض أصدقائه من المشايخ أو بعض الطلبة المقربين منه، وكان يستقبل الجميع بصدر رحب، ومرّت الأيام بين الاطلاع والتجارب، وعندما علم بخروج الفرنسيين من مصر بدأ القلق يعصف به، حيث كان على علم بما سيفعله الإنجليز والعثمانيون بمصر، ولكن ما لم يكن في حسبانه هو أن بعض المشايخ بالأزهر قد أضرموا نيران الفتنة بينه وبين الإنجليز، وقد قرّر بعضهم الخروج بمظاهرة لطلب محاكمته، باعتباره كان موالياً للفرنسيين، ولم ينتظر تلك الأحداث فذهب إلى صديقه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي وأخبره بما يضرمه المشايخ في الأزهر الشريف تجاهه، ولم ترحه مبررات صديقه بأنها زوبعة لن تستمر وستنقضي بزوال الأيام، فقرّر الشيخ حسن العطار ألا ينتظر أكثر من هذا، وقرّر حزم أمتعته ليرحل من مصر لحين هدوء الأوضاع.

وبدأ يجمع أغراضه وانتظر جنح الليل، ليغادر منزله متجهاً إلى بولاق ومنها استقل مركباً متجهاً إلى خارج الحدود المصرية.

وبدأت رحلة الشيخ حسن العطار بعدما استقل إحدى السفن واتجه رأسًا إلى دولة «ألبانيا» ومنها إلى بلدة تسمى «شكودرا» حيث كان على علم بأن حاكمها يحب العلماء ويستضيفهم، وأقام فيها مدة طويلة حيث كانت مركزاً للثقافة الإسلامية، منذ بدأ في إعمارها رجل من آل «بوشاتلي يدعى مصطفى باشا بوشاتلي» وقد جعلها من القوى الأوربية، فأصبحت شكودرا أكبر مدينة في ألبانيا عرفت بالبشوية الجديدة، وامتدت إلى «كوسوفا» وكان قائدها يهتم باستضافة العلماء.

وعمل بها الشيخ حسن العطار مدرساً في مدرسة «السوق القديمة» التي كانت من المدارس الإسلامية المعروفة في المدينة، وتعرف على الشيخ «محمود المصري» الذي جاء إليها من مصر وبدأ يكوّن أسرة هناك، وسارت الحياة بالشيخ حسن العطار بهدوء بعض الشيء، حتى اقترح عليه الشيخ محمود المصري في أحد الأيام أن يتزوج، قائلاً له:

- لماذا لم تتزوج حتى الآن يا شيخ حسن؟

فقال له الشيخ حسن العطار وهو يبتسم:

- ليس لدي تفكير في أي شأن غير تحصيل العلم، والزواج أمر يحتاج إلى اقتسام وقتي بين البيت وواجباته، وبين العلم والتزاماته.

فضحك الشيخ محمود المصري وهو يقول:

- إذا كان الله فرض الزواج لإكمال الدين فلا أعتقد أن قواعد الدين ستؤثر على السعي للعلوم، لا يا شيخ حسن لابد لك من الزواج، وعندي لك عروس ستعينك على ما أنت فيه.

فنظر إليه الشيخ حسن العطار وهو يقول باستغراب:
- وهل وجدت لي عروساً أيضاً يا شيخ محمود، يا لك من رجل طيب، ومن تكون؟
فابتسم الشيخ محمود المصري وهو يقول:
- إنها ابنة رجل من أكابر البلدة وهو رجل دين ملتزم، فما رأيك؟
فأطرق الشيخ حسن العطار برأسه برهة ثم قال:
- فليفعل الله ما يريد يا شيخ محمود.
وتمت مراسم الزواج في أبهى صورة، وعاش الشيخ حسن العطار في المدينة ينعم بالأمن والراحة، وأنجب من زوجته أبناءً عكف على تعليمهم بنفسه أصول اللغة العربية وحفظ القرآن والفقه الإسلامي، وألحقهم بالمدارس التي تهتم بتعليم الأطفال، وانقطعت أخباره عن مصر طوال تلك الفترة، وكان يقضي معظم أوقات راحته في ضيافة الشيخ محمود المصري، يجلس معه في حديقة منزله، ويتبادلون أطراف الحديث عن العلوم وغرائبها، فكان الشيخ حسن العطار يأنس لمجالسة الرجل الذي كان على علم ودراية بالكثير من تلك العلوم، وفي أحد الأيام كان الشيخ حسن العطار يجلس كعادته مع الشيخ محمود المصري فقال له الشيخ حسن العطار:
- كنت أتمنى أن تصبح مصر كشكودرا، فلقد رأيت كيف يهتم قائدها مصطفى باشا بوشاتلي بالاقتصاد والتعليم في باشويته.
فنظر له الشيخ محمود المصري وهو يقول:
- هذا غير محافظته على سبل التواصل مع القوى الأوروبية، حتى أصبحت شكودرا كما ترى في وقت قصير أكبر مدينة في ألبانيا.
فتنهد الشيخ حسن العطار وهو يقول:
- لقد علمت أن مصر تولى عرشها أحد القادة الألبان يدعى محمد علي، ويقال إنه يحاول ربط صداقة مع والي مدينة شكودرا مصطفى باشا بوشالتلي، فأرجو من الله أن تكون تلك بداية نهضة لمصر.
فابتسم الشيخ محمود المصري وهو يقول:
- مازلت تحلم بمصر يا شيخ حسن، كلنا نأمل في النهضة لمصر، ولكن هجرتنا منها جعلتنا نأمل في مستقبل لأولادنا في تلك البقاع.
فنظر له الشيخ حسن العطار وهو يقول بدهشه:
- هل نويت الاستقرار هنا إلى الأبد يا شيخ محمود؟

فنظر إليه الشيخ محمود المصري وهو يتنهد بحزن قائلاً:
- وما الضرر يا شيخ حسن كلها بلاد الله، وسبحانه وتعالى أمرنا بالترحال إلى أرضه الواسعة، ألم يقل إن أرض الله واسعة فسيحوا فيها.
أومأ الشيخ حسن العطار برأسه وهو يقول:
- صدقت يا شيخ محمود، ولكن يدفعني الحنين دوماً إلى العودة مرة أخرى إلى وطني ومسقط رأسي.
فقال له الشيخ محمود المصري:
- لقد تزوجت هنا وأنجبت يا شيخ حسن، وأرى أن اهتمام الوالي بالعلماء أمثالك يشجع على المكوث بهذه البلاد.
فقال له الشيخ حسن العطار:
- لا أنكر سعي الحاكم هنا لاستضافة العلماء من مختلف البلدان، وبخاصة مصر بعدما بدأت تربطه بها علاقة، مع بدء تولي محمد علي زمام الحكم بها، حيث أرى أنه يشاركه طموح الاستقلال عن الدولة العثمانية.
أومأ الشيخ محمود المصري برأسه، ولم يكن يدري أن الشيخ حسن العطار قد قرّر أمراً في نفسه.

** **

كان رفاعة يتذكر تلك الأحداث التي وقعت لشيخه، وهو يخشى على نفسه بأن يعرقله شيء عن هدفه، ونام ليلته في الكرنتينة وهو يفكر في حبه الوحيد وأنشودته التي لا يملّ الترنّم بها، خطيبته كريمة بنت خاله التي ملكت القلب والفؤاد.
في صباح أحد الأيام جاءهم الأمر بانتهاء مدة المكوث في الكرنتينة، فبدأوا يخرجون إلى شوارع مرسيليا وركبوا عرباتها المزينة، والتي كانت تسير في طرقات المدينة طوال النهار والليل، وأحصنتها تقرقع على الطرق النظيفة المرصوفة، ووصلوا داخل المدينة إلى أحد القصور، فمكثوا به إلى حين التوجه لمدينة النور باريس.
وكان يسمح لهم بالخروج إلى الشوارع للتنزه لبعض الوقت يومياً، وكان للسير في هذه البلدة العجيبة أثر كبير على رفاعة، الذي ظلّ يحفظ في ذاكرته ما ترصده عيناه، باهتمام لحين عودته إلى السكن ليفرغه على الورق، واصفاً كل ما اختزنه عقله من مشاهد وعادات وتقاليد،

فقد رأى في مرسيليا ما ذكَّره بمدينة الإسكندرية، التي شعر أنها تشبه مرسيليا إلى حد ما، غير أنه وجد الطرق في مرسيليا متسعة اتساعاً مفرطاً، فالطريق الواحد يكفي لمرور أكثر من عربتين معاً في الاتجاه الواحد، وأغلب الأروقة للبيوت منظمة، ونوافذها عظيمة تتحلى بزخارف من الزجاج الملون والزجاج ليظهر لها رونق، وعندما رأى انعكاس صورته هو ومن معه فيها اندهش جداً، حينها علم أن هذا من خاصية الزجاج العاكس فهو كالمرآة ، وعندما عاد إلى السكن المخصص لهم، جلس يدوّن ما رآه ليرسل به إلى شيخه فكتب وهو يردّد كأنه يحدث نفسه:

- ما أجمل مرسيليا بشوارعها وأبنيتها، ومحلاتها العظيمة المزينة بالزجاج العاكس، وتلك المحلات التي تقف بها النساء يبعن للزبائن.

وقد لاحظ أن عادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس والنحر واليدين إلى قرب المنكبين، وشاهد أن من يبيعون في أغلب تلك المحال من النساء الجميلات، كما شاهد الرجال يقومون بالأشغال الحرفية الشاقة، ورأى أيضاً أحد المقاهي وهي كالتحفة الفنية، التي تدل على اهتمام هؤلاء القوم بالتذوق الفني في التشييد، وكانت المقاهي عظيمة الشكل، مزينة بالأشياء العظيمة النفيسة، التي تليق بعلية القوم لغلو أسعارها جداً فلا يجلس بها إلا أهل الثروة، أما الفقراء فإنهم يدخلون بعض المقاهي الفقيرة أو الخمّارات، وعلم أن المقاهي هناك ليست مجمعاً للحرافيش، بل هي مجمع لأرباب الذوق.

وفي اليوم التالي عندما خرجوا للتجوّل في شوارع مرسيليا، صادف رفاعة في المدينة الكثير من نصارى مصر والشام، الذين خرجوا مع الفرنسيين من مصر، وندر وجود المسلمين الذين خرجوا معهم، وكانوا يلبسون مثل الفرنسيين، وقد سمع أن منهم من مات ومنهم من تنصّر، خصوصا النساء اللواتي أخذهن الفرنسيون صغاراً، وكانوا من المماليك «الجورجية والجراكسة» وقد صادف في إحدى المحلات امرأةً عجوزاً تبيع للزبائن، وعندما تحدث معها رفاعة وجدها تجيد اللغة العربية، فسمع منها من عجائب الأمور والأقدار الكثير وأهمها، أنها مازالت باقية على إسلامها.

فجلس معها رفاعة ليتحدث عمن تعرفهم في مرسيليا من أهل مصر، فعلم منها أنه هناك شخص تنصر يسمى «عبد العال» وقالت له:

- هذا الرجل كان من ولاة الفرنسيين بمصر فلما سافروا تبعهم، وبقي على إسلامه نحو خمسة عشر سنة، ثم بعد ذلك تنصر.

فاندهش رفاعة وصاح:

- العياذ بالله، وما السبب الذي دفعه لفعل ذلك؟

فأخبرته العجوز:

- لقد تنصر بسبب رغبته بالزواج بنصرانية ولقد مات بعد زواجه بفترة، ويقال إن أحدهم، سمعه يقول عند موته أجرني يا رسول الله.

فتمتم رفاعة:

- لعله بهذا قد ختم له بخير وربما لم يتنصر فعلاً.

قالت المرأة:

- لا أعلم ولكن البعض قال إنه سمعه أيضاً يقول بلسان الحال، الحمد لله، والحنيفة ملتي، والله ربي، وابن آمنة نبيِّي.

ظهر التعجب على وجه رفاعة وهو يسأل المرأة:

- وهل خلّف وراءه ذرية؟

قالت له المرأة العجوز:

- يقال إن له ولدين وبنتاً، عادوا إلى مصر وهم على دين النصرانية.

وظل رفاعة جالساً معها وقتاً طويلاً، وقد سمع منها ما أدهشه فعلاً عندما قالت له:

- هل سمعت عن «منيو» الذي يقال إنه كان ساري عسكر، وتولى مكان «كليبر» بمصر بعد مقتله.

أطرق رفاعة برهة وقال لها:

- حكى لي شيخي عنه وأعتقد أنه أسلم في مصر نفاقاً كما كان يقال، وسمى نفسه «عبد الله» وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد.

ابتسمت المرأة في مرارة وهي تقول:

- هل تعلم أنه عندما خرج الفرنسيون من مصر، وأراد الرجوع مع الحملة الفرنسية أخذها معه، فلما وصل لوطنه رجع إلى النصرانية وأبدل العمامة بالبرنيطة، ومكث مع زوجته وهي على دينها مدة، فلما ولدت أراد زوجها أن يُعمِّد ولده على عادة النصارى، فأبت الزوجة ذلك وقالت: لا أنصّر ولدي ولا أُعلمه ديناً غير الإسلام.

صاح رفاعة:

- إنها حقاً امرأة قوية بتمسكها بدينها.

طأطأت العجوز برأسها وهي تقول:
- ولكن زوجها لم يتركها وأخبرها أن كل الأديان حق فلم تستمع لما قال، فلما علم منها الثبات على موقفها أخبرها أن القرآن ناطق بذلك وإنها مسلمة وعليها أن تصدق بكتاب نبيها، ثم أحضر لها أحد الإفرنج وكان على علم باللغة العربية، ويسمى «البارون دساسي» وكان يعرف من القرآن الكثير وقال لها زوجها سليه عما قلته لك، فحكت له ما دار بينها وبين زوجها، فأخبرها أنه يوجد في القرآن أن النصارى هم أقرب أهل الكتاب إلى الدين الإسلامي.
فصاح رفاعة وهو يقول:
- هل يفترون على كتاب الله ويؤولونه على حسب أهوائهم.
نظرت إليه العجوز وهي تقول:
- يا بني لست على علم بكتاب الله، وما أعرفه هو ما يعينني على الصلوات فقط، ولكن ذلك الرجل استطاع أن يبطل حجتها، وتحت ضغط زوجها لم تجد غير ترك ابنها ليُعمده والده، ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما سمعنا، أنها تنصرت هي أيضاً وماتت كافرة.
تملكت رفاعة الدهشة والعجب وقال وهو يردد: (لا إله إلا الله، صدق من قال: كل دين إن فاتك الإسلام ... فمحال لأنه أوهام)
وعاد إلى المسكن وهو مهموم مما سمع، وجلس يدوّن ما سمعه وهو في كدر وتعجب مما يحدث للإنسان، من تغير طباعه وسلوكه وحتى دينه، عندما يترك وطنه ويحاول مجاراة الغرباء.

** **

في صباح اليوم التالي خرج رفاعة مع رفقاء من البعثة، وأخذوا يتجولون في المدينة، وقد خلت لهم بما فيها من تمدن المباني والمحلات حتى المقاهي، وحاول رفقاء رفاعة إدخاله إلى أحد المقاهي، فرفض بشدة ولكن بعد تردّد تملّكه فضول المعرفة وتدوين كل ما سيراه مما جعله يوافق، وعندما اقتربوا من المقهى رأى فيه ما أدهشه، فلقد شاهد امرأة جالسة على ما يشبه المنضدة العالية، تأمر العاملين بالمقهى وأمامها دواة وقلم ودفتر من الأوراق، وكان بالمقهى قاعة ملحقة مخصصة لتقديم القهوة، وبين المقهى والقاعة توجد كراسي مرصوصة ومكسوة بقطيفة مشجرة، وطاولات مصنوعة من الخشب اللامع، يجلس عليها أُناس يأتيهم العاملون في المقهى بكل أنواع الشراب والطعام، وكانت المرأة إذا طلب أحد الجالسين شيئاً، تأمر أحد العاملين بإحضاره له

وتقوم بتدوينه في دفاترها، ثم تناول العامل ورقة صغيرة فيها الثمن وترسلها معه لصاحب الطلب حين يريد دفع حسابه.

وعندما جلسوا وجدوا أن المشروب الساخن يحضرونه ومعه السكر في آنية صغيرة، ليخلطه ويذيبه صاحب الطلب على حسب رغبته، ففعلوا كما رأوا من حولهم يفعلون، ولاحظ رفاعة أن فنجان القهوة عندهم كبير كأنه قدح لا فنجان، فكان يعادل نحو أربعة فناجين من فناجين مصر، ووجد على الطاولات صحفاً للأحداث اليومية يطالعها الجالسون.

وصادف هناك أحد المصريين وكان يلبس مثل الفرنسيين، وكان اسمه «محمد الشريف» يتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة، ويكاد لا يعرف من اللغة العربية إلا اليسير، وعندما سأله رفاعة عن بلدته ببر مصر أخبره قائلاً:

- أنا من مدينة تسمى «أسيوط» وأبي وجدي من أشرافها.

قال له رفاعة:

- وهل تذكر أحداً من عائلتك؟

فقال له الرجل:

- أبي يدعى السيد عبد الرحيم وهو من أكابر هذه المدينة، وأمي تسمى مسعودة.

فقال له رفاعة:

- ولماذا لم تحاول العودة إلى مصر؟

فنظر اليه الرجل وهو يقول:

- لي هنا عمر.. منذ أن اختطفني الفرنساوية في صغري، وأنا أعمل بحرية في أي مهنة.

قال له رفاعة:

- ولكني سمعت أن كثيراً من الذين جلبوا مع الفرنسيس قد تنصروا.

فقال له الرجل:

- ولكني مازالت باق على إسلامي.

فنظر له رفاعة قائلاً:

- وما الذي تعرفه من أمور دينك الإسلامي؟

ابتسم الرجل وهو يقول:

- أعلم أن الله واحد، ومحمد رسول الله.

أطرق رفاعة برأسه وهو يفكر في كيفية مساعدة هذا الرجل لمعرفة تعاليم الدين الإسلامي،

وقد بدأ يتوسّم من حديث محمد الشريف هذا الخير، وكان على وجهه سمة الأشراف الحقيقة، فقال له:

- إن صح كلامك.. فربما ينتهي نسبك إلى أولاد سيدي حريز بن سيدي أبي القاسم الطهطاوي، فما رأيك أن تلزمني فترة إقامتنا هنا فنحن أبناء عمومة، وسأعلمك بعض أمور دين الإسلام من طهارة وصلاة وقرآن.

فوافق الرجل وظل يداوم على الحضور إلى رفاعة، الذي كان يعلّمه الوضوء والصلاة وحفَّظه بعض آيات من القرآن وبعض الأحاديث النبوية، ولم يمهل الوقت رفاعة فرصة كبيرة مع هذا الرجل، فلم يطل المقام برفاعة ومن معه في مرسيليا فبعد انتهاء مدة إقامتهم فيها، أمرهم المشرف على البعثة أن يركبوا عربات خصصت لنقلهم براً إلى باريس، وكانت تلك هي وسائل السفر براً من مرسيليا إلى باريس، حيث يركب المسافرون العربات التي يستأجرونها وكان السفر متاحاً ليلاً ونهاراً، واستقلت كل جماعة منهم عربة انطلقت بهم من مرسيليا إلى باريس، واستغرقت الرحلة مدة ثلاثة أيام، كانوا يتوقفون بين الحين والآخر في الطريق للراحة، ومروا على بعض البلدان في طريقهم بها أماكن استراحة، معدة بالطعام والشراب وللنوم أيضاً، ومفروشة بعناية ونظيفة، وبعد مسيرة ليست بالقصيرة، وصلوا مدينة «ليون» ومكثوا فيها نحو نصف يوم للاستراحة، ثم سار بهم الركب منها ليلاً إلى باريس، فدخلوها صباح اليوم السابع من خروجهم من مرسيليا.

** ** **

الفصل الخامس

-1-

السودان

نحن غصنان ضمّنا عاطف الوج
د جميعاً في الحب ضم النطاق
في جبين الزمان منك ومني
عزة كوكبيـــة الانفـــــلاق

كانت المركب التي تحمل رفاعة ورفاقه، قد نزلت بشواطئ إحدى البلدان وقضوا بها يوماً بليلة، وفي صبيحة اليوم التالي لمبيتهم، اتجهوا إلى مركبهم وكانت مياه نهر النيل هادئة، لا أمواج تتلاطم ولا دوامات تعاكس سير المركب، فأخذت تبحر بهم في اتجاه الجنوب، كان رفاعة جالساً في مكانه المعتاد ينظر إلى الأفق الذي يلوح من بعيد، كان يتذكر من وقف له بالمرصاد ليقضي على طموحه ويُقصيه عن الساحة العملية، فينفيه إلى الجنوب بحجة واهية، هذا الجنوب الذي كان مصدر قلق لمحمد علي باشا بعدما فرّت إليه فلول المماليك، واستطاعوا أن يستوطنوا في «دنقلة» بشمال السودان، ليقوموا فيها بتجارة الرقيق وقد جعلوها قاعدة لهم، وهذا ما جعل محمد علي باشا يقرّر مطاردة المماليك، لتأمين الحدود الجنوبية للبلاد من أي ضرر ففكر فوراً في أن يضم السودان لحكمه، لعلمه بما حدث في القرن الثامن عشر، عندما كانت الحبشة تُشكل تهديداً لأهل مصر وأهل السودان، لعزمها على تحويل مجرى النيل بمساعدة من الإنجليز وأوروبا الذين كانوا يسعون لمساندة فكرة التحويل، فخشي محمد علي باشا معاودة الكرة وحدوث شيء مشابه بمساعدة من المماليك، فأراد تأمين مجرى النيل لإدراكه قيمة وأهمية النيل بالنسبة للحياة في السودان ومصر، فقرّر أن يضم تلك البلاد إلى حكمه، وبذلك يستطيع السيطرة على الوضع في الجنوب، وأرسل محمد علي باشا وفداً للسودان محملاً بالهدايا إلى «سلطان الفونج» يحمل في ظاهره الصداقة والمودة، ولكن كانت مهمة الوفد الحقيقية استقصاء الحقائق، حول الوضع العام في بلاد السودان، وردّ السلطان على الهدية بما يناسب هدايا محمد علي باشا، لكن أهم ما حمله الوفد في طريق عودته كانت التقارير التي تفيد بضعف السلطنة السودانية، وكثرة الخيرات الطبيعية هناك إضافة إلى خلو السودان من الأسلحة النارية.

وطمع محمد علي أيضاً في استغلال ثروات السودان الطبيعية، واحتكار محاصيلها وتسويقها في السوق العالمية عن طريق مصر، وكانت من أهم صادرات السودان وقتها «العاج والأبنوس وريش النعام والجلود».

وأعد جيشاً بقيادة أحد أبناءه وأرسله إلى هناك ولم تطل الحرب حتى استطاع الجيش السيطرة على البلاد، وقام بالقضاء على المماليك وتأمين السودان، وعند استقرار الأوضاع هناك، قرّر محمد علي أن يستبدل القوات الألبانية في جيشه بالسودانيين، عندما علم أن الجندي السوداني تكوينه الجسماني قوى ومعروف عنه شجاعته في الحروب، لذلك أراد محمد علي باشا، أن يستقدم الجنود من السودان لمساعدته في تكوين جيشه الحديث.

وأرسل إلى ابنه ليمده بعشرين ألفاً من السودانيين، ليتم تدريبهم على الجندية في معسكرات أعدّها لهم في «بني عدي» على أيدي ضباط محنكين، وتم له ما أراد إلا أن تلك التجربة فشلت، بسبب الأمراض التي تفشت في الجنود، لاختلاف المناخ بالنسبة لهم، وبعدها أغلق محمد علي باشا ملف حاجته إلى السودانيين، وجعل السودان محمية طبيعية فقط، يحصل منها على خير ما في أرضها ليصدّره إلى أوروبا.

** **

كان رفاعة يفكر وهو ممدد على ظهر المركب، لا يعلم أي مجهول ينتظره رغم علمه أن تلك الرحلة، ما هي إلا نفي له على جرأته في التحدث إلى والي البلاد بشأن عدم غلق المدارس، فقرّر الوالي عباس حلمي نفيه إلى السودان، ولكن أعضاء المجلس المخصوص اقترحوا أن يخبروه بأنه سيذهب إلى السودان ليقوم بإنشاء أول مدرسة في الخرطوم.

تذكر كره الوالي عباس حلمي له حتى قبل أن يتولى الحكم، عندما كان يحقد على تقرب رفاعة من محمد علي باشا وفي ظل مرض محمد علي باشا، كان يقوم بمحاولات لإبعاد رفاعة عن بلاط الحكم، وعندما توفي محمد علي باشا كان عباس حلمي قد تولى الحكم منذ عام، وحينها استقل بعدها بحكم البلاد وأصبحت لسلطاته حرية مطلقة بلا أية قيود، ولم يكن عباس حلمي يريد أن يسير على نهج أسلافه، من تطوير التعليم وتنظيم الجيش، وأثار ذلك حفيظة المستنيرين وكان رفاعة على رأسهم، وهو أول من تحرك لمواجهة الوالي، فلم يستطع الصمت أمام شيء يضر بمكانة العلم والتقدم، فقد أدرك منذ البداية رجعية عباس حلمي وضيق أفقه، إلى جانب استبداده الذي جعله يحرم كل أفراد العائلة العلوية من الميراث، فتزعّم هو قرار مواجهته

وطالب على الفور مقابلته والتحدث إليه، رغم معارضة خاله ومن حوله ولكنها فورة الحماسة وأمانة العلم اللتان كانتا تدفعانه، فواجه الوالي بآرائه مما دفع عباس حلمي إلى إبعاده عن الساحة في هذا الوقت.

فتذكر كيف كان شيخه حسن العطار قوياً في موقفه لقناعته بضرورة إحياء العلوم وثقافة البلاد، حتى عندما تنقل بين البلاد وصادف الكثير من العباد.

فعندما قرّر شيخه ترك شكودرا وعزم على ذلك يومها، روى له كيف كانت عزيمته أقوى من أي شيء يتعلق بالدنيا وزخرفها، فلقد كان دائم التنقل بينها وبين بعض البلاد المجاورة، وعكف على تعلم اللغات وتحصيل العلوم الفلكية والهندسية والكيمائية، وصار له صيت ذائع هناك وقد لقبه البعض بالشيخ حسن العطار المصري واشتهر بين العامة بهذا الاسم، وكانت الأمور تمر به من حال إلى حال حتى انقضت عشر سنوات فقرّر الرحيل إلى بلاد الشام، ليطلع على بعض العلوم هناك، وأخبر صديقه الشيخ محمود المصري بما عزم عليه، فقال له الشيخ محمود المصري:

- وهل ستمكث هناك كثيراً؟

فنظر له الشيخ حسن العطار وهو يقول بهدوئه المعتاد:

- لست أدري لعلي أعود سريعاً أو أمكث لبعض الوقت، ولكني أوصيك بزوجتي وأولادي، فأنت تعلم أن عادة أهل هذه الأرض ألا تترك النساء موطنها.

فقال له الشيخ محمود المصري:

- أعلم تلك العادات ولكن اطمئن، فهم في عيني وحفظ الله، وسأرسل زوجتي بين الحين والآخر لتطمئن عليهم.

فقال له الشيخ حسن العطار:

- أعلم أن عملك إماماً للمسجد الكبير لا يترك لك وقتاً، ولكني على علم بأنك تحسن التصرف في مثل تلك الأمور.

وودع الشيخ حسن العطار أولاده وزوجته، وعندما ذهب إلى ميناء السفن وجد الشيخ محمود المصري وبعض أصدقائه في انتظاره ليودعونه، وتعانق الرجلان بحرارة، وأكد الشيخ حسن العطار على صديقه الاهتمام برعاية أهل بيته، وركب السفينة التي اتجهت إلى «دمشق» وغادر شكودرا وهو لا يعلم هل سيعود إليها أم لا، وسارت به السفينة أياماً ولياليي، وعندما وصلت السفينة إلى دمشق استقبله هناك أحد رجال العلم، الذين كان قد قابلهم في شكودرا من

قبل، وقد دعاه إلى زيارته يوماً ما في دمشق واستضافه الرجل وأحسن مقامه، وأخذ يتعلم على يدية فترة حتى طلب منه إجازته في العلوم، ففرح به الشيخ حسن العطار وأجازه، وظل الرجل معترفاً بفضله عليه حتى أنه ترجاه أن يمكث بينهم حتى يستفيد منه طلاب العلم، وكان الرجل يعمل إماماً بمسجد «الدقاق» وكان يُدعى بالشيخ «حسن البيطار» وفي أحد الأيام أخبر الشيخ حسن العطار أن بإمكانه التدريس بأحد المدارس، لرغبة أهل العلم في الانتفاع بخبرته، فقال له الشيخ حسن العطار:

- ولكن يا شيخ بيطار إن قمت بالتدريس، سيتوجب عليّ الإقامة هنا إلى ما شاء الله.

فقال له الشيخ حسن البيطار:

- وما المشكلة في إقامتك بيننا إن أردت أن تجلب أسرتك فلك ذلك، وإن أردت الزواج أيضاً هذا متاح لك.

فابتسم الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- ليس الأمر كما ترى ولكني أريد التزود من العلوم في كل البلدان التي أذهب إليها، وتدوينها مهما اختلفت المعارف والأقطار، فهذه هي رسالتي في الحياة.

فقال له الشيخ حسن البيطار:

- لك ما تريد فأقم معنا، وعندما تريد الرحيل لن يمنعك أحد فأنت مكرم بيننا.

ووافق الشيخ حسن العطار على البقاء والتدريس، وعمل بمدرسة هناك تسمى مدرسة «البدرية» ومرت به الأيام بكل هدوء، وكان يتريض في أوقات فراغه في البساتين، ويعجب بجمالها وكتب فيها الأشعار، كما كان يحب السير في الطرقات ليطلع على جمال المباني، ويتعرف عل عادات وتقاليد البلاد، حتى جاء يوم قرّر أن يرحل إلى «إسطنبول» مع صديقه الشيخ حسن البيطار الذي طلبه السلطان هناك، فصارحه بذلك قائلاً:

- لقد طابت لي الإقامة بينكم، ولكني أريد أن أذهب معك إلى إسطنبول، فهناك بعض المعارف أريد أن أدونها.

فقال له الشيخ حسن البيطار:

- ولكنك هنا تعكف فعلاً على الاطلاع على كل ما هو جديد من العلوم؟

فنظر إليه الشيخ وهو يقول:

- في كل مكان أذهب إليه توجد علوم جديدة لم أطلع عليها بعد.

فقال له الشيخ حسن البيطار:

- ومتى ستعود إلى هنا؟

فقال له الشيخ حسن العطار:

- لا أعلم ففي كل مرة أرتحل تأخذني ندّاهة العلم، فلا أدري متى تحين العودة.

وغادر الشيخ حسن العطار مع صديقه دمشق متجهان إلى إسطنبول، وما إن وصلا إلى هناك حتى اتجها إلى حيث «جامع العرب» هناك وأديا فروض يومهما، وعندما انتهيا بدأ الشيخ حسن العطار يسأل عن مكان يسكن فيه مع صديقه، وبعد بحث دله البعض على مكان ملائم لهما، وسكنا غرفة في أحد الحارات القريبة من جامع العرب ولكن صديقه تركه ليذهب لمقابلة السلطان، وعاش الشيخ حسن العطار بمفرده في هذا المكان مدة بعدما أسكن السلطان صديقه في نزل خاص به، وبدأ هو في البحث عن أماكن بيع الكتب، وفي أحد الأيام عرّفه صديقه الشيخ حسن البيطار على رجل كريم يدعى «عبد القادر» وكان رجل فقه، ويحب الاطلاع على العلوم الحديثة مثله، وتوطدت العلاقة بين الرجلين حتى بعد رحيل الشيخ حسن البيطار إلى موطنه دمشق، وكان الشيخ حسن العطار يجلس مع صديقه الجديد يتحاوران في بعض المسائل التي تُشْكل على أحدهما، وأقام بالمدينة مدة، تعلم خلالها اللغة التركية وتهيأت له فرصة التعرّف على كل ما يقع عليه ناظره من علوم وكتب وعمارة وعادات وتقاليد، وفي أحد الأيام عرض عليه صديقه الشيخ عبد القادر بأن يزوجه ابنته، وتفاجأ الشيخ حسن العطار بذلك العرض، ولم يستطع الرفض لكرم الرجل ومكانته، وتزوج الشيخ حسن العطار وطابت له العشرة مع زوجته وفي رحاب علم والدها، ولكن بعد الزواج بسنتين أصيبت الزوجة بمرض عضال وكانت قد أنجبت منه طفلًا، وفي تلك الأثناء كان الشيخ حسن العطار عازماً على العودة إلى مصر، بعدما وصلته أنباء عن المحاولات المستمرة من الوالي محمد علي باشا للإصلاح، ولكن ظروف المرض الذي أحاط بالزوجة منعتها من الرحيل معه، فترجاه والدها أن يتركها حتى تشفى، وتركها في رعاية والدها وسافر من إسطنبول عائداً إلى القاهرة.

ما أن طافت بخلد رفاعة ذكرياته مع شيخه، تذكر افتقاده لمعلمه الشيخ حسن العطار، فضاق به الأفق وكادت عزيمته أن تنهار، لولا أنه أصر على مواصلة طموح شيخه الذي زرعه داخله، فاجتهد بكل طرق السعي من أجل الوفاء بالعهد الذي طوّقه به الشيخ حسن العطار، عندما قال له:

- يا رفاعة إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم ما ليس فيها، وهذا دورك ودور كل صاحب همة تهمه بلده.

وكانت تلك هي آخر النصائح التي تلقاها منه فقد ترك مرض الشيخ حسن العطار في نفس رفاعة حينها أثراً كبيراً، فظل جالساً بجواره أياماً لا يبرح مجاورته، وكان يقوم على خدمته بنفسه حتى وافته المنية، فلم يصدق رفاعة ما حدث، وعندما حُمل جثمان شيخه إلى الأزهر الشريف ليصلوا عليه، كانت الأفواج التي تنتظره من الطلبة والأمراء والشيوخ كبيرة، وكان أغلبهم من الذين يحفظون لشيخه الفضل عليهم، وتجمّعت الجماهير الغفيرة حول مسجد الأزهر، الذي كان الشيخ حسن العطار، قد تولى مشيخته لمدة خمس سنين قبل وفاته، ودخل النعش إلى ساحة المسجد ليصلوا عليه، وبعد انتهاء الصلاة والدعوات، حُمل جثمان الشيخ حسن العطار في موكب مهيب يليق بمكانته التي ملأت أرجاء مصر والوطن العربي، وعند المقابر كان المشهد عظيماً، فلقد علا النحيب إلى عنان السماء بجانب الدعوات، ووارى التراب جسد العالم الجليل ومضى المشيعون إلى مقاصدهم، وظل رفاعة على شاهد القبر مدة طويلة مطأطئ الرأس، يتمتم ويتلو ويدعو لشيخه في خفوت يتخلله نحيب، حتى ترفّق به بعض الشيوخ وأخذوه إلى منزله، وظل رفاعة في حزنه لا يبرح منزله أياماً طوالاً.

** ** **

-2-
اسماً بلا جسد

على صفحة النيل سحب الليل عباءته بهدوء، فغفت عين رفاعة وظل نائماً لم يشعر بما حوله، حتى صاح بهم صاحب المركب، ليوقظهم وقد بدأت نسمات الفجر تداعبهم بصفائها قائلاً:

- تأهبوا يا رجال لقد وصلنا مشارف السودان.

نظر إليه رفاعة بعينين لم يتركهما النعاس والإرهاق بعد، وقد أصابه هذا الصياح برجفة خفية سرت في أوصاله وهو يسأل:

- متى نصل إلى الخرطوم؟

فقال له صاحب المركب:

- بضع ساعات ونكون هناك على شط الخرطوم.

فقال أحد مرافقي رفاعة وهو ينظر إليه:

- لا تخش شيئاً يا شيخ رفاعة، فنحن بجوارك.

نظر إليه رفاعة وهو يحاول إزاحة مسحة الحزن عن وجهه:

- هل تواسيني أم تعزي نفسك لما نحن مقبلون عليه.
قال آخر وهو يحاول أن يهدئ من التوتر الذي ساد الجميع:
- نحن الآن في مصير واحد ونعزي أنفسنا أولاً، ونستمد السلوى من بعضنا البعض.
ومضى المركب في طريقه، إلى أن وصل بهم إلى شاطئ الخرطوم في صبيحة اليوم التالي، وما إن لامست أقدام رفاعة ورفاقه أرض الخرطوم، حتى استقبلهم هناك حكمدار السودان، والذي كان على علم بما قرّره الوالي عباس حلمي بشأنهم، فكان الرجل حازماً صارماً في تعليماته لهم، وهو يقول:
- أنتم من أرسلهم الباشا عباس حلمي إلى هنا لإنشاء مدرسة ابتدائية؟
فرد عليه أحدهم:
- نعم نحن من بعثنا الوالي إلى هنا، لإنشاء أول مدرسة ابتدائية، لتعليم أهل السودان.
فنظر إليهم الحكمدار وهو يقول:
- ومن منكم الشيخ رفاعة الطهطاوي؟
فنظر إليه رفاعة وهو يجيبه:
- أنا رفاعة يا سيادة الحكمدار.
فالتمعت عين الحكمدار وهو يقول:
- آه إذاً أنت شيخ رفاعة..! لقد وصلتني أخبار كثيرة عنك يا شيخ رفاعة، هل أتيت لتهتم بإنشاء مدرسة في السودان، أم ستجلب لنا المتاعب هنا؟
فنظر إليه رفاعة وقد شعر بشيء من عدم الارتياح تجاه الحكمدار وقال:
- مهمتي هي إنشاء أول مدرسة في الخرطوم يا سيادة الحكمدار، وأنا لا أثير مشاكل لأحد، ولا أقوم بضرر للآخرين فمهمتي واضحة.
أومأ الحكمدار برأسه وهو يتمتم:
- أتمنى ذلك.. فليس عندي من يستطيع عمل مشاغبات، فالعقوبات هنا رادعة للجميع.
وألقى الأوامر إلى بعض أتباعه، فأخذوا رفاعة ومن معه إلى مكان سكنهم الجديد، الذي مكثوا فيه أياماً بلا عمل يُذكر، فكانوا يذهبون كل يوم إلى المكان الذي خصص للمدرسة فيجدونه خاوياً، لا طلبة ولا مهمات تصلح للتدريس، ومرت الأيام على رفاعة ومن معه ثقيلة كالجبال دون القيام بأي عمل حيث لا توجد مدرسة فعلية غير بناء خاوٍ من الطلبة، فكانوا لا يجدوا من يدرسون لهم ولا مهمات تجهيزية بالمدرسة، مما اضطر رفاعة ذات يوم إلى التفكير في الهرب

من منفاه هذا، فلم يكن لرجل شعلة من النشاط مثله، ولن يرضى أن يبقى مستسلماً للبقاء في هذا القيد بلا عمل طويلاً، ولقد شعر أن الوالي عباس حلمي استطاع أن يصنع جداراً بهذا المنفى، ورغم ذلك قرّر السعي للهدف الذي جاء من أجله، بعدما وجد أهل البلاد السودانية يعيشون بلا ضوابط لحياتهم ولا يقرؤون ولا يكتبون، ولا يعرفون شيئاً من الأمور المسهلة للمعيشة، وإنما تبعثهم التلقائية المفرطة على قضاء حياتهم، فيزرعون بعض ما يحتجونه أو يقومون بالصيد لما يكفيهم لتحصيل قوت يومهم فقط، ويعيشون في أخصاص أو خيام للوقاية من حر الشمس كأنهم أغراب عن تلك البلاد، فقرّر رفاعة أنه لابد أن يجعلهم يرتقون بمستوى معيشتهم، حتى تكتمل عندهم درجة التمدن، في أمور المعاش والعمران والصنائع البشرية والعلوم العقلية، حتى وإن عرفوا التطبب بأعشابهم البرية لكنهم يعيشون على الفلاحة وتربية المواشي، فهم على عكس أهل مصر والشام واليمن والمغرب، والروم والعجم والإفرنج الذين تعلم منهم، فإن جميع تلك الأمم أرباب عمران وسياسات، وعلوم وصناعات وشرائع وتجارات ولهم علم بالسفر في البر والبحر.

لذلك قرّر رفاعة ومن معه رغم ما رأوه من بدائية الحياة في السودان، أن يمكثوا بالخرطوم ويجتهدوا قدر الإمكان في مسعاهم، ويعلموهم بعض أمور الدين ليفرقوا بين الحلال والحرام، وحاولوا الاجتهاد قدر المستطاع على مدار عام كامل، وبدأت خيبة الأمل تتسلل إليهم لشعورهم بنفور القوم من فكرة التعلم والتغيير للعادات التي تربوا عليها، بدأ أغلب من عرضوا عليهم التعليم يهربون إلى الجبال، ولم تفلح معهم محاولات رفاعة ورفاقه، ولم يستطع أي منهم فعل شيء مع هؤلاء الفارين، لتمسّك القوم بما ورثوه من بدائية الحياة وتلقائية المعيشة التي ورثوها من أسلافهم، وبالتالي لم تكن تلك المدرسة المزعومة قد يسّر لها أن تُفتح طوال هذا العام، وكان ديوان المدارس بمصر لا يهتم بهم ولا بعملهم طوال تلك المدة، وهذا أكد لرفاعة بالدليل بأن الرحلة ما هي إلا نفي له ولزملائه، لا لإنشاء تلك المدرسة المزعومة بالخرطوم ولا بتعليم أهل السودان!

ومع مرور الأيام مرض بعض رفقاء رفاعة بسبب الأمراض التي تنتشر بكثرة هناك، ولم يجدوا دواءً لما أصابهم ولم يسعفهم أحد لعدم وجود مستشفى لمراعاة المرضى، ولم يمض وقت حتى مات بعض من رافقوه، وكان حزن رفاعة عليهم شديداً وقد أصابته الكآبة لما يحدث حوله، وشعر رفاعة بأن أجله قد يكون في تلك البلاد التي نُفي إليها ليموت إما كمداً أو مرضاً، وكان هو ومن بقي من زملائه يستعينون بالأعشاب المعروفة هناك للوقاية والتحصين من الأمراض.

** **

في صبيحة أحد الأيام سلّم الحكمدار لرفاعة خطاباً من المسئولين في القاهرة، يريدون فيه أن يرسل إليهم تقريراً عن إنجازات المدرسة خلال هذه المدة، فقرّر أن يكون رده عليهم بإخبارهم بالحقيقة كاملة، وكتب إليهم يخبرهم أن المدرسة ليس لها دور فعلي، ولم يجد إقبالاً من القوم عليها، ومن جلبهم الحكمدار ليخضعوا للاختبار ليصبحوا تلاميذ بالمدرسة هربوا إلى الجبال، وقد استجدى هو ومن معه القوم لينضموا إلى المدرسة ولكن بلا جدوى، وإن القرى بالسودان لا تستقر لنزاع القبائل بها فلا يستطيعون التعامل معهم، وأخبرهم بوفاة بعض الشيوخ من رفاقه، كما لم ينس إخبارهم أن مهمات المدرسة قد استولى عليها الحكمدار، ووزعها على فرق الجيش وأصبحت المدرسة اسماً بلا جسد حقيقي.

وأرسل تقريره وهو يحاول أن يتأقلم مع تلك الأوضاع، حتى يأتيه رد على ما أخبرهم به لربما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً أو يعيدوهم إلى القاهرة، ولكن طبيعته المتفتحة كانت تأبى الاستكانة فحاول مراراً تهدئة الأطراف المتنازعة بين القبائل، ورغم رضوخ بعضها إلا أن غلبة التعصب القبلي كانت تقضي على مساعيه في أغلب الأوقات.

وكان طوال الوقت يبحث حوله عن سلوى له ضد التعنت الذي يمثله الحكمدار وأعوانه، وقد نظم قصيدة يتشكى فيها مرارة نفيه واستغاث فيها بكتخدا مصر «حسن فؤاد باشا المانسترلي» ولكنه لم يرسلها إلى أحد واحتفظ بها لنفسه، فلم يكن يريد بعد طول تلك الفترة استعطاف السلطة بالقاهرة أو المداهنة معها.

مرت الأيام بعد وصول التقرير وما يضمه من الأخبار إلى القاهرة، فأرسل الوالي عباس حلمي إلى حكمدار السودان يتوعده ويأمره بمعاونة المبعوثين إليه، وقام الحكمدار بمواجهة رفاعة بما كتبه إلى القاهرة، وقال له:

- أنت يا شيخ رفاعة ترسل إلى الوالي عباس باشا لتشكوني عنده.

فقال له رفاعة:

- أنا لم أشكوك أنت.. بل طلبوا مني تقريراً عن المدرسة ففعلت.

تمتم الحكمدار وهو يشير إلى رفاعة:

- بل شكوتني وأردت عمل متاعب يا شيخ رفاعة.

فصاح به رفاعة وقد فاض به الكيل:

- لقد صارحتهم بالوضع هنا، ويكفي موت بعض من خيرة العلماء بتلك الأرض، بدون أن يقوموا بالواجب الذي يفترض أننا أتينا من أجله.

تمتم الحكمدار:

- سأعيد إليك المهمات التي تريدها، وسوف أساعدك كما أمر الوالي عباس حلمي باشا، وسأنتظر نتائج ما سوف تفعله.

ثم سلّمه رسالة من المجلس المخصوص موجهة إلى رفاعة، طالبين منه العمل على افتتاح المدرسة بعد الأوامر التي صدرت إلى الكتخدا، وعندما استعاد رفاعة مهمات المدرسة، عمل بكل جد ونشاط هو ومن تبقى معه على افتتاحها، وقد بدأ بعض من رأوا المعاملة الحسنة من رفاعة ورفاقه يستجيبون لطلبه بالانضمام إلى المدرسة، وقد وجدوا بها من المهمات وبعض المغريات من الهدايا التي وعدهم بها رفاعة بعد تخرجهم من المدرسة، وبالفعل انضم إليها تسعة وثلاثون تلميذاً منتخباً ممن اجتازوا الاختبارات، فتعلموا فيها اللغة العربية وقواعد النحو والخط والحساب والهندسة والتخطيط، وحفظوا أجزاء من القرآن، ومن توسَّم فيهم رفاعة النجابة خصّهم بحفظ كامل القرآن وقراءته ودراسة الآجرومية، إلى جانب تعلمهم وحفظهم لمفردات وجمل تركية، وعملت المدرسة بنشاط لمدة تسعة أشهر متصلة.

** ** **

الفصل السادس

-1-

نبض الرسائل

«عندما تصبح الرسالة جسراً يربط بين العوالم»

جلس رفاعة في غرفته وقد أنهكه التعب، بعدما حقق جزءاً كبيراً من مسعاه، فقد اقترب موعد تخرج أول دفعة أخيراً من الطلبة المتفوقين بالمدرسة، وقد اطمئن إلى إمكانية التوسع في رسالة المدرسة للراغبين في التعليم، وأخذه التفكير إلى حيث طلابه في القاهرة وأحوال مدارسها، واستحوذ عليه الحنين لأهل بيته وأبنائه ولزوجته كريمة تلك الحبيبة والزوجة والمعشوقة، يتذكر كيف غلبه الشوق إليها وإلى أبنائه عندما قدم إلى السودان، فكان ذلك دافعاً له أيضاً للتفكير في محاولة الهرب من السودان، وفي بادئ الأمر دبّر الخطط ولكنه تراجع عن ذلك خشية أن يلومه القوم، ويشيعون عنه أنه غير أهل لتحمل المسؤولية ونوازل أقدارها، وهو الشيخ الفقيه والعالم النابه المتعلم في بلاد النور، وها هو بعد تلك المدة التي قضاها وحقق جزءاً مما يرجوه، قرّر أن يرسل إلى أهله وأصدقائه بمصر لعلهم يجدوا طريقة لمساعدته في العودة، ولكنه كان يخشى اكتشاف أمر تلك الرسائل، فلقد كان وجوده بالخرطوم خاضعاً لرقابة شديدة، تفرض عليه ألا يتسلم أو يرسل خطاباً، إلا عن طريق الحكمدار الذي كان يفض رسائله ليعرف ما بها، على عكس الحريات التي كان يتمتع بها في باريس، فهناك على الرغم من بعد المسافة واختلاف ثقافة من حوله، كانت توجد طرق أكثر يسراً لإرسال واستقبال الرسائل، والتي كان يتبادلها مع شيخه حسن العطار وخاله الشيخ محمد الأنصاري، أما هنا فقد امتنعت عليه هذه الحرية لشدة الرقابة الصارمة، وعلى مدار المدة التي قضاها لم يستطع أن يرسل ولو رسالة لأهله، وانقطعت الصلة بينه وبين أصدقائه وأهله في مصر، الذين كانوا لا يرسلون إليه خشية من عواقب تلك الرقابة التي وصلتهم أخبارها من رسائل أصدقائه إلى القاهرة، فكثيراً ما كانت تعصف به مشاعر الحنين واللهفة لموطنه وأهله، وهو في هذا المنفى بالجنوب وكان يشعر بأن رحابة الأرض والسماء ضيقة عليه.

وفي أحد الأيام وأثناء سيره ببعض المناطق، التي يرتادها الغرباء لاكتشاف معالم السودان، التقى برجل أجنبي توسم فيه الطيبة، فتقرب إليه وعرف أن اسمه «بايارد تيلور» وعلم منه

أنه رحالة أمريكي، يجوب أقطار العالم لاكتشاف العلوم والآثار وعادات الشعوب، وعلم أنه بعد رحلته في السودان سيذهب إلى القاهرة ليزور معالمها، فعزم على أن يرسل معه بعض الرسائل بعيداً عن الحكمدار وأعوانه، وفي محاولة للتغلب على مخاوفه حدّث الرجل بالأمر، وسأله إن كان في استطاعته مساعدته في حمل ثلاث رسائل معه، يقوم بتوصيل إحداهما إلى ولده وأهله في بلدته طهطا، والرسالة الثانية يسلمها إلى أحد أصدقائه وأخرى إلى خاله الشيخ محمد الأنصاري بالقاهرة.

قائلًا له:

- إنني لا أستطيع ائتمان التجار على تلك الرسائل، فلو فضّها الحكمدار أو أي أحد من أتباع الوالي عباس حلمي وقرأها، لطال بي أمد المنفى في تلك البلاد سنين عديدة، أما إذا تفضلت بإيصالها، فإن أصدقائي وأهلي بالمحروسة سيطمئنون عليَّ، وربما يجدون سبيلاً إلى معاونتي، ولربما تمكنوا من إعادتي إلى وطني.

وعندما سمع منه تيلور ذلك قال له:

- أعلم أن وقوع تلك الرسائل في أيد غير أمينة سيعرضك للمشاكل، وقد يؤثر ذلك بالسلب على نفسك، وإني سوف أوصلهما إلى مكانهما فلا تخشى شيئاً.

ثم أخبره تيلور بموعد رحيله، وعاد رفاعة وهو يحاول تجميع شتات أفكاره، لكي يكتب ما يريده بإيجاز قدر الإمكان، وعكف تلك الليلة يكتب ويصيغ الرسائل بكل هدوء حتى وصلت للصيغة التي أرادها، وعندما اقترب موعد رحلة بايارد تيلور حمّل معه ثلاث رسائل، وودعه رفاعة وهو يؤكد عليه الاهتمام بالرسائل، وفي اليوم التالي ركب تيلور مركباً ليحمله إلى القاهرة، وبعد عدة أيام مرت على رفاعة كالدهر وهو لا يعلم شيئاً عن وصول تيلور إلى القاهرة، سلّم الرجل إحدى الرسائل إلى صديق رفاعة الذي أخبره بعنوانه بالقاهرة، والأخرى إلى خاله الشيخ محمد الأنصاري الذي أخبره رفاعة بأنه سيجده في الأزهر الشريف فبحث عنه حتى وجده، وبعد ذلك ذهب تيلور في رحلة داخلية لطهطا مسقط رأس رفاعة، وعندما وصل إلى طهطا بحث عن منزل رفاعة، وهناك استضافه الشيخ فراج الأنصاري خال رفاعة لحين حضور بدوي فتحي الابن الأكبر لرفاعة، لكي يتسلم خطاب والده الذي كانت أشواقه تسبق خطابه، وكان الابن قد وصله خبر وصول رسول والده من أهل البلد، وعلى عجلة من أمره حضر لمقابلة هذا الرسول مع لفيف من أهل البلدة، وقد توافدوا من كل حدب وصوب، ليطمئنوا على أحوال الشيخ رفاعة، وكان تيلور يُعامل بكل أدب وود، وكم كانت غبطتهم شديدة عندما

طمأنهم الرجل على أحوال رفاعة وصحته، وشعر تيلور بأن كل من حضر من أهل البلدة، كأنهم جميعاً أهل رفاعة أو هم فعلاً كلهم من أفراد أسرته، وعندما ضاق المكان على الضيف، قام الشيخ فراج الأنصاري بصرف الجميع، ولم يبقَ إلا هو وبدوي فتحي الذي صار فتياً، وأغلق الشيخ فراج الأنصاري الغرفة عليه وعلى الضيف وابن رفاعة، وجلسا إلى الضيف لكي يسمعا أخبار الشيخ رفاعة الطهطاوي في منفاه، وأخبرهما بايارد تيلور أنه تعرف على الشيخ رفاعة في الخرطوم، وقد حمله هذه الرسالة إلى ابنه.

** **

بعد مرور قرابة الشهر على رحيل بايارد تيلور كان رفاعة ممدداً يتقلب كالمحموم، في الغرفة التي كان يتخذها سكناً، وقد مضى الوقت عليه بطيئاً، ولم يعلم حتى هذا الوقت شيئاً عن أمر رسائله، وعصفت بعقله الأسئلة: (هل وصلت الرسائل؟ هل سيستطيع أصدقاؤه توصيل رسالته الأولى إلى قنصل فرنسا بالقاهرة لمساعدته؟ وهل سيستطيع خاله فعل شيء بعدما يقرأ رسالته ويعلم بأخباره؟ وهل سيجد من أرسل إليهم تلك الرسائل، تدابير حقيقية لإعادته من منفاه...؟ وهل وصلت رسالته الأخرى إلى أهله بطهطا، ليطمئنوا عليه؟) الكثير من «هل» تزاحمت في عقله بلا إجابة، وفي أثناء تقلبه تعلّق بصره بسقف الغرفة وأخذ يحدّث نفسه وقد جافاه النوم:

- لو كانت هذه الرسائل استعطافاً، أو سعياً إلى وساطة لدى الوالي عباس حلمي لما خشيت من فضها وقراءتها، ولكن إن قرأها أو وصل عنها خبر لدى أعوانه، قد يؤدى هذا إلى إطالة أمد نفيي في هذه البلاد إلى أجل غير مسمى.

يتنهد بغضب فهو يعرف أن الوالي عباس حلمي عنيد ومتعجرف، ولكنه عاد إلى حيرته:

- إن نجح بايارد تيلور في أن يوصل الرسائل بسرية تامة، ربما جعل ذلك أصدقائي وخالي الشيخ محمد، يتشجعون على مراسلتي أو يحاولون معرفة سبيل لعودتي مرة أخرى إلى المحروسة.

ظل يبحث في ذاكرته عن شيء يحطم به صمت الليل المطبق، فتذكر رسالة زوجته الحبيبة وقرة عينه كريمة عندما بعثت له بأول رسالة وهو في باريس، يومها كان لصدى كلماتها، مفعول الخدر وواقع السحر عليه، كم يفتقد جوارها وهمس كلماتها، يستعيد عقله تلك الرسالة: (ابن عمتي العزيز، خطيبي وحبيبي الغالي.. الذي أشتاق إليه اشتياق الزهور إلى ندى الصباح ولهفتها إلى نسيم الهواء، ورجاء العليل إلى الدواء، كم أفتقدك وأحن إلى صوتك ورحيق كلماتك، تلك الكلمات التي طالما أسرتني بسحرها، فأنت كنت لي نسمة الهواء التي تتخلل كياني

ووجداني، كم أفتقد دفء جوارك، ونظرة عينيك اللتين كانتا تشعرانني وكأني في عالم سمائي، به من العصافير المغردة ما يجعلني أغرد مثلهم، وتنبت لي أجنحة لأحلق في سماء عينيك تلك، فأنا الآن أجلس في حيرة تتملكني، ومتاهة تلقي بي في دوامات من الفكر، فلم أستطع أن أحفظ ما تتلوه عليّ معلمتي، التي عندما شعرت بما أنا فيه ولاحظت ذلك، شجعتني هي وجارتي العزيزة على أن أرسل لك، وأدين لهما بوافر الشكر والمحبة، فلقد أخذت جارتي رسالتي تلك، وبحثت عمن يوصلها إليك دون علم أحد، فأنا أخشى من أمي التي لا تطيق الانتظار على خطبتنا، وأخشى من والدي إن علم بشأن هذه الرسالة فيعنفني، فبعدك يا رفاعة جعلني أخشى من كل شيء حولي، حتى أني أخشى طرق أهلي على باب غرفتي، أخشى أن يعلموا ما بي فينهرانني، كم أخشى أن تفضحني مشاعري، فيهلك قلبي من وجع الحب، فيكفي قلبي ما به من ألم الفراق، متى تعود يا حبيبي وقرة عيني، لم أعد أحتمل ذلك الفراق الذي يقتل كل يوم فؤادي، ولولا وثوقي بك لقتلتني الهواجس خوفًا من أن تُعجب بفرنساوية، هل حقاً يا رفاعة من الممكن أن تعجبك فتاة غيري؟ اعلم إن فعلت يومها سأقتلك وأقتل نفسي، وتكون النهاية لتلك الحياة القاسية، فأنت لا تعلم مدى حبي وشوقي إليك، حتى أنا لم أكن أعلم مقدار هذا الحب حتى غبت عن ناظري، فلم أستطع حتى الآن تصديق هذا البعد، وأعلم أني أعيش وحيدة في غرفتي، يؤنسني طيف خيالك في عيني، أعزي به نفسي لتحمل هذا الفراق، فعُد يا قرة العين فكريمة تنتظر لقياك.)

تعلو وجهه ابتسامة وهو يتذكر هذه الرسالة، ويتمتم:

- ترى ما هي أحوالك الآن يا كريمة يا قرة العين والفؤاد...؟

يترك جفون عينيه تنساب في استسلام، لتراوده أطياف زوجته وحبيبته ومعشوقته كريمة، فتستجيب عيناه للاستراحة ويهدأ عقله للاستسلام.

** ** **

-2-

في اليوم التالي جلس رفاعة في ساحة المدرسة بعدما انصرف كل المعلمين إلى فصولهم؛ يسترجع بعض الذكريات التي ارتبطت به أثناء دراسته في باريس، وتذكر تلك الرسائل القصيرة التي وصلته من بعض المعلمين الفرنسيين الذين كانت تربطهم به صلة قوية، وقد رأوا فيه مثال الطالب النابه المجتهد المستنير، فصارت علاقتهم به كالصداقة، كانت أول رسالة يتذكرها هي رسالة مسيو شواليه التي أرسلها إلى مسيو جومار يمتدح فيها رفاعة، وقد كتب فيها:

(مسيو جومار أشهد أن المدة التي مكثها التلميذ المذكور عندي لم أر منه إلا أسباب الرضى، سواء في تعليمه أو في سلوكه المملوء بالحكمة والاحتراس وحسن خلقه ولين عريكته، وقد قرأ معي في السنة الأولى اللغة الفرنساوية وفيما بعد الجغرافيا والتاريخ والحساب وغير ذلك، وصرف جهله باللغة الفرنسية، مع غايته في الترجمة التي هي صنعته التي اختارها لنفسه، وأشغاله فيها مبينة في ملاحظاتي الشهرية، خصوصاً الترجمات التي أعطيتها لك مسيو جومار، وما ينبغي التنبيه عليه أن مسيو الشيخ رفاعة، وصلت به إجادته إلى أن شغله مدة طويلة في الليل، تسبب عنه ضعف في عينه اليسرى، حتى احتاج إلى الحكيم الذي نهاه عن مطالعة الليل، ولكن لم يمتثل لخوف من شيء يعيق تقدمه، وقد رأى أن من الأفضل إسراع تعليمه، وأن يشترى الكتب اللازمة له غير ما سمح به الميري، وأن يأخذ معلماً آخر غير معلم الميري، وأنفق جزءاً عظيماً من ماهيته المعدة، في شراء كتب، ومكث لدي هذا المعلم أكثر من سنة، والذي كان يعطيه الدرس في الحصة التي لا يقرأ معي فيها، وقد ظننت أنه يجب عليّ وقت سفره أن أعطيه هذا الخطاب لإجازته الموفق لها، وأن أضيف إلى ذلك الإفصاح عما في ضميري من كمال اعتقاد فضله ومحبته.... مسيو شواليه 28 في شهر فبريه سنة 1831)

يبتسم رفاعة في مرارة وهو يتذكر اعتراف الأعجمي له بالريادة، في حين أن الوالي عباس حلمي ينكر علمه ويقرّر نفيه، ترتسم أمام عينيه كلمات الخطاب الذي أرسله له مسيو «رنو» عندما كتب له يريد نسخة من كتاب «العلوم الصغير» الذي ترجمه رفاعة لمؤلفه «دبنغ» فكتب له:

(إلى مسيو الشيخ رفاعة.. قد حمّلني مسيو دبنغ أن أسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم الصغير المشتمل على أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم، لأن مسيو دبنغ مؤلف هذا الكتاب يريد أن يطبع الكتاب بترجمتك في مصر، فهل يتيسر لمؤلف الأصل أن يقيد اسمه لتحصيل عدة نسخ من هذا الكتاب بالشراء؟ ونودّ أن تخبرنا عن أين وصلت في الترجمة في المجلد الأول من جغرافيا «ملطبرون» لأن هذا الجزء الآن يطبع طبعاً آخر، مصححًا مشتملاً على زيادات لا توجد في

الأول، وسيكتمل طبعه خلال هذا الشهر فلا بأس أن نحيطك به علماً. ومني إليك مزيد التحية.... مُحبك الصادق رنو بخزانة الكتب السلطانية بباريز.)

يزداد شعور رفاعة بالمرارة وهو يتذكر تلك الرسائل التي كانت وساماً على صدره يدفعه إلى الأمام، ويتذكر وهو في طريق عودته من باريس، عندما وصلته رسالة من مسيو «جول سلادان» والذي تركها له قبل سفره وكتب له فيها:

(إلى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة، قد سُلمت أمانتك لابن شيخ المأمورية ليعطيها لك، فانتظرها بعد وصول هذا المكتوب بزمن يسير، وقد وكّلني أخي بأن أخبرك بثنائه عليك على ما صنعته معه من الجميل في إعارتك له هذه الأمانة، وأن أهنئك على بلوغك المأمول، وعن قريب تفارقنا لترى وطنك العزيز، فإن شاء الله تجتمع بما تركته فيه من الأقارب والأحباب وتجده بخير، فقد بلغني أن سفرك قد قرب جداً حتى أنني لا أظن أن بإمكاني مقابلتك في مدينة باريس، ولكن لو سافرت قبل هذا الزمن بيسير، لاجتمعنا في مرسيليا وودعتك في آخر مدينة من المدن الفرنساوية تعبر منها في سفرك، ولو تأخر سفرك مدة يسيرة، لافترقنا في مدينة باريس التي كان بها أول اجتماعنا، ولا أدري إن كان التلاقي مقدراً أم لا، ولكن تقلبات الدهر كثيرة خصوصاً للإفرنج، فلا يمكنني أن أجزم بعدم الاجتماع، وبالجملة فلا شك أنك تركت في فرنسا صديقاً يذكرك ويتأثر لك بما يقع لك من النفع والضرر، ويسر غاية المسرة إذا بلغه أنك تحظى في بلادك بثمرة فضلك وأوصافك، وأظن أنك تسأل في بلادك مراراً عديدة عن هذه الفتنة العظيمة، ونصرة الفرنساوية في طلب الحرية، فإذا وقع اتفاقاً أن سفرك توقف مدة أيام، فمأمولي أن أراك في مدينة باريس، وإلا فأرجو منك ألا تسافر حتى تودعني بلسان القلم، بمحبتي لك غاية المحبة... جول سلادان)

يقلب رفاعة نظره إلى ما حوله ثم ينظر إلى السماء، وهو يتعجب من تلك الصورة الحية التي جسدها هؤلاء القوم، والتي تؤكد له رغبة هؤلاء الأجانب في محبة كل مجتهد وصاحب الطموح، وتذكر المحبة التي ظهرت تجاهه من البارون «سلوسترى دساسى» الذي أرسل إلى رفاعة ذات يوم برقية يطلب فيها شرف مقابلته.

الفصل السابع

-1-

عجائب بلاد أفرنجستان

«سافروا سافروا فالمكان لمن يبدع فيه لا لمن يسكنه»

في نهاية اليوم عندما عاد رفاعة إلى مسكنه، تناول القليل من الطعام ثم توضأ وصلى وجلس يقرأ بضع آيات من القرآن، وعندما انتهى استلقى على فراشه وترك عقله في حالة استسلام، لتزوره الأحلام بتفاصيل من رحلته في بلاد النور باريس، وكأن عقله أراد أن يخفف عنه عناء ما هو فيه، فنقله إلى أطياف لمشاهد ما مر به في باريس، فعرض له شريط الأحداث، بداية وصول البعثة إلى مشارف فرنسا، حيث كان وقتها قد بدأ يتقن تعلم التهجي للغة الفرنسية، التي استغرقت معه طول الرحلة من مصر إلى هناك، وفور وصوله إلى أرض باريس، أخذ يجتهد في البحث عمن يعلمه اللغة الفرنسية، وبعد مدة قصيرة عثر على ضالته فاتخذ معلماً خاصاً على نفقته الخاصة، ليحقق طموحه في التعلم والمعرفة بما حوله، ليضرب مثلاً حياً في الاجتهاد وسعى بكل عزم لتحقيق ذلك، وكان كل أفراد البعثة قد تم توزيعهم على «بنسيونات» متعددة، حتى تتاح لهم فرصة الاختلاط بالفرنسيين، لتقوية قدراتهم على التحدث باللغة الفرنسية، وفي هذه الأثناء لم يكتف هو بالبرنامج العام الذي تخضع له البعثة في الدرس والتحصيل، وما لبث في هذه البلاد حتى سعى للتعرف على هذا العالم، فأخذ يقتطع من مصاريفه التي تقدمها له إدارة البعثة في شراء بعض الصحف والكتب، لتحصيل أكبر قدر من المعرفة في شتى المجالات، وانهمك ليلاً ونهاراً في القراءة والتعلم، حتى أصيبت في أحد الأيام عينه اليسرى بالضعف من كثرة الاطلاع، ونصحه الطبيب بالراحة ونبهه بعدم الاطلاع على الكتب خصوصاً بالليل، وضرب بنصائح الطبيب وتعليماته عرض الحائط واستمر في سعيه، وكان يشعر بأن للاجتهاد ثماراً طيبة فأصر أن يجنى منها ما يستطيع، ولفت إليه ذلك الاجتهاد القائمين على البعثة، مما دفع بعضهم إلى الاهتمام به، وكان على رأسهم «مسيو جومار» الذي علم تميزه عن باقي زملائه في هذا المضمار، فزكاه في تقريره الذي أرسله لمحمد علي باشا فأصدر عزيز مصر أوامره بضمه إلى أفراد البعثة، بحيث يكون تخصصه في مجال الترجمة، وبعد تمكن رفاعة في مجال الترجمة فكر في أن يضم إلى اللغة العربية وتراثها بعضاً من اللغة الفرنسية وعلومها،

لتفوّقه وإتقانه للغة العربية المطعمة بدراسته الأزهرية، التي كانت تصنع لديه تميزاً وتفرداً، متنبئاً بأنها ستكون بذرة تميز للترجمة، وقد تجعل منه أفضل مترجم ممن سبقوه، وقضت البعثة عاماً كان خلالها مسيو جومار هو المكلف بالتعهد والإرشاد والتعليم للبعثة، إلى جانب الحظوة والمحبة التي حظي بهما لديه دون غيره لاجتهاده، وقد ذكره ذلك بشيخه حسن العطار، وقد ساعده مسيو جومار مساعدات جمة في هذه البلاد.

كانت خطبة مسيو جومار لهم في بداية دراستهم، يتردد صداها في عقله مما جعله يتململ في نومه وكاد يصحو، وإن علت شفتيه ابتسامة خفيفة أثناء نومه، وهو يرى طيف مسيو جومار يقول:

(إنكم منتدبون لتجديد وطنكم، التجديد الذي سيكون سبباً في تمدين الشرق بأسره.. أمامكم مناهل العرفان، فاغترفوا منها بكلتا يديكم، واقتبسوا من فرنسا نور العقل، الذي رفع أوروبا على أجزاء الدنيا، وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون، التي ازدان بها عدة قرون من الأزمان الماضية، فمصر التي تنوبون عنها، ستسترد بكم خواصها الأصلية، وفرنسا التي تعلمكم وتهذبكم، تفي ما عليها من دين الشرق على الغرب كله)

يصحو رفاعة من نومه وصدى تلك الكلمات مايزال يتردد في عقله، فابتسم وهو يتذكر كيف كان حاله عندما سمع تلك الكلمات، فقد زادت ثقته بنفسه وفخره بوطنه، ودفعه هذا إلى استثمار دوره الذي ارتضاه لنفسه وقد دفعه إليه طموحه للوصول لمبتغاه..

أغمض رفاعة عينيه من جديد وهو يتذكر عندما عُقد أول امتحان لأفراد البعثة، وكان يحضره العديد من رجال فرنسا المهمين، ويشرف عليه ويرأسه الكونت «دى شبرول» محافظ ولاية «السين»؛ وكان أحد علماء الحملة البونابرتية على مصر، وقد أدى كل أفراد البعثة الامتحان في اللغة الفرنسية، والرسم والرياضة والعلوم الهندسية والحربية، وعند امتحان الترجمة كان هو الوحيد الذي انفرد بأعلى الدرجات بها دون غيره ووضعوه على رأس الناجحين، وقدم له مسيو جومار جائزة عبارة عن كتاب «رحلة أنخرسيس إلى بلاد اليونان» والتي كانت في سبعة مجلدات مموهة بالذهب، ومعها خطاب كله تشجيع وتقدير وكتب تقريره عن نجاح هؤلاء المبعوثين قائلاً:

(إنه من المدهش الذي لا يكاد يصدق، أن عرباً أتوا باريس منذ عشرين شهراً، تمكنوا من أن يعبروا عن أفكارهم، بشعر فرنسي لا عيب فيه وألفوا مقطوعات منه، يشرّف الفرنسيين إتيانهم بها، وإنما يعرف قيمة ما كتبوه من يعرف من هؤلاء الذين كتبوا ذلك، وفي كل ما يخطه قلم

هؤلاء الشبان المصريين باللغة الفرنسية، يجد القارئ ضرباً من البساطة، وحرية الفكر يستحقّ الذكر، فمن المنتظر أن الخرافات الشرقية ستنمحي من عقولهم، وأن الحجب الكثيفة التي تغطي أعين الشرقيين، وتقيّدهم بسلاسل الطفولة ستسقط تدريجياً.)

يتنهد وهو يتذكر ما خصّه به مسيو جومار في معرض الحديث عنه في تقريره هذا:

(وممن امتازوا من بين هؤلاء الشبّان الشيخ رفاعة، الذي أُرسل ليحرز فن الترجمة، حتى إذا رجع إلى بلاده، أطلع بترجماته الجمهور المصري على تآليفنا العلمية، وأدنى منه ثمرات آدابنا وعلومنا، وقد ابتدأ هذا الشيخ يقوم بتحقيق مقاصد حكومته، فترجم من الفرنسية كتاب مبادئ العلوم المعدنية وأرسله إلى مصر ليطبع فيها، وترجم أيضاً تقويماً لسنة ١٢٤٤ هجرية ١٨٢٨ ميلادية، والذي وضعناه لمصر وسورية، وفيه فوائد كبرى لهما، ولا سيما إذا نشر سنوياً، والشيخ رفاعة هذا رجل متعلم، فهو لا بد أن ينجح في ترجمة الكتب التاريخية، وسائر التأليف الأخرى).

وكانت كلمات مسيو جومار هذه شهادة، بأن رفاعة قد أنجز ترجمة بعض هذه الكتب الفرنسية إلى العربية، ولم تمض على إقامته بباريس مبعوثاً سنة وثمانية أشهر، وكان رفاعة فخوراً عندما بعث بهذه الكتب إلى مصر، لكي تطبع وتحدث تأثيرها في وطنه.

* ** **

-2-

كان المجلس المخصوص قد أرسل مفتشاً لمتابعة سير التعليم في المدرسة الابتدائية الأولى في السودان، بعدما علموا بأن رفاعة قد تفرغ للنهوض بها، واطلع المفتش على المجهود الذي بذله رفاعة ورفاقه مع الطلبة، حتى استطاعوا أن يخرجوا أول دفعة بها، وحضر المفتش يوم التخرج ورأى رفاعة وهو يقف ليلقي على الطلاب الذين تخرجوا من المدرسة، بعض الكلمات التشجيعية قائلاً لهم:

- إنكم الآن قد اطلعتم على نافذة جديدة للحياة، فبالتعليم ترتقي العقول، ولقد وعدتكم بهدية لكل متفوق، وإني أهدي إليكم بعض أجزاء من ترجمتي لرواية مغامرات تلماك التي ألفها القسيس الفرنسي فنلون وهي رواية مستوحاة من الأساطير الأوروبية.

ثم وزع عليهم بعضاً من أجزاء الرواية التي نسخ منها عدة نسخ، وكان قد قارب على الانتهاء من ترجمتها، وبعد انتهاء الحفل جلس مع أصدقائه، ليقرّروا ماذا سيفعلون في المرحلة القادمة،

واتفقوا على البدء في اختبار مجموعة أخرى لإلحاقهم بالمدرسة، بعدما بدأ القوم في الإقبال على المدرسة، واعد المفتش تقريره ليعود به إلى المجلس المخصوص، وقد أشاد في هذا التقرير بالمجهود للقائمين على هذه المدرسة وعلى رأسهم رفاعة.

وعندما عاد رفاعة إلى سكنه تمدد وترك عقله يستريح بعدما حقق جزءاً مهماً من مهمته، كانت فرحته بنجاح طلابه لا تقل عن فرحته بالنجاح الذي حققه طلاب البعثة، والذي لفت انتباه المشرفين الفرنسيين على البعثة، يومها بدأ هو والطلاب الذين أنجزوا المرحلة التمهيدية من دراستهم بباريس، ينتظمون في البرنامج الدراسي، الذي تتوزع بموجبه التخصصات ليتفرغوا لما سيدرسون، وقد سبقهم رفاعة إلى البدء في بعض الترجمات، وقد عزم على أن يترجم إلى العربية، كل ما تصل إليه يداه من كتب لهؤلاء الأوروبيين، حتى يصنع ما صنعه أسلافه العظام في زمن العباسيين، وخاصة في عهد الخليفة العباسي المستنير المأمون.

وعمل بكل روحه ووعيه لتحقيق هذه الرغبة، فأقبل على إتقان فن الترجمة من الفرنسية إلى العربية، والذي جعله يتفوق على زملائه، وزاد نهمه لتحصيل العلم ما استطاع، حتى إنه كلما فرغ من قراءة كتاب، في أي من العلوم أو الفنون يقوم بترجمته، فقد كان يريد أن ينقل إلى مصر وأهلها هذا العلم الحديث، حتى يطلعوا على هذه الكتب وما بها من أفكار جديدة، فيصيروا شعباً متحضراً كأوروبا التي صارت ترتقى المراتب العليا رقياً وحضارياً وعلمياً، وظلت تتردد في ذهنه دائماً، نصيحة شيخه ومعلمه حسن العطار، بأن يدوّن كل ما يراه ويوثقه.

أعاد له عقله حنينه من جديد، فتعلق بصره بالمجهول وتذكر الرسائل التي كان يتبادلها مع شيخه حسن العطار، وكيف أنه عندما قرأ أول رسائله، وكانت الرسالة تصف أحوال البلاد بعث له برسالة، يقول فيها:

(جميل ما كتبته لي يا رفاعة.. ولكن اعلم بأنك سوف تشاهد الكثير من العادات والتقاليد، وستطلع وتقرأ العجيب من الأفكار والنظريات، فكل ما تراه وتصادفه من العادات والتقاليد الغريبة، قيّده واكتبه لينتفع به أهل بلدك، وراسلني دوماً.)

دمعت عيناه رغماً عنه وهو يتذكر شيخه حسن العطار، وعاودته الذكرى عندما قرّر حينها أن يرسل إليه بأغلب مشاهداته، وما يسمعه من أشياء جديدة على الحياة الشرقية، وجعل من الرسائل جسر عبور لتلك الحضارة إلى مصر والشرق عامة، وبالفعل كتب له وصف كل ما رآه في رحلته، فقد كان انبهاره بباريس وشوارعها وعادات أهلها دافعاً له للاطلاع على أهمية التنظيم وحسن الإدارة، وظل يدون كل شيء تراه عيناه، وقد قرّر أن يطلع شيخه حسن العطار

على كل ما رآه أولاً بأول، فأرسل إليه رسالة يخبره فيها عما رآه قائلًا:
(شيخي الغالي.. لقد علمت بعد طول بحث أن باريس لم تُسمى على اسم رجل شهير كما قال بعضهم، فباريس سميت بذلك لأن طائفة من أهلها القدامى، كانوا على نهر السين، يسمّون الباريزيين، ومعناها بالفرنسية القديمة «سكان الأطراف والحواشي» وباريس من أعمر مدن الدنيا ومن أعظم مدن الإفرنج وقاعدة ملك فرنسا، ويقال منذ زمن إنها «جنة النساء» لأن النساء بها منعّمات سواء بمالهن أو بجمالهن، ويقال إنها «أعراف الرجال» رغم أن هؤلاء القوم عبيد للنساء، فإن الرجل يحرم نفسه من متطلباته لكي ينزّه عشيقته، ويقال أيضاً أنها «جحيم الخيل» لأن الخيل فيها تجر العربات ليلاً ونهاراً على أحجار أرض باريس، خصوصاً إذا كانت مستأجرة لعربة امرأة جميلة، فإن السائق يجهد خيله ليوصلها إلى مقصدها عاجلاً، فالخيل دائماً معذبة بهذه المدينة، والمطر بها لا ينقطع في سائر فصول السنة، وانهماره كثير لذلك يجعلون قمة منازلهم منحدرة، لتنزل منها المياه إلى أسفل، ويصنعون في كل البيوت والطرق مجار وبالوعات، وأرض هذه المدينة مبلطة بالحجر المتساوي، فلا تتسرب المياه أبداً إلى منتصفها، بل تسير إلى هذه المجاري ومنها إلى البالوعات، وفي باريس عين ماء باردة، ونهران أحدهما وهو الأعظم والأشهر، هو «نهر السين» والآخر هو «نهر غويلان» ونهر السين نزهة في أيام الحر، ويبلغ في ذروة الشتاء حد التجمد، حتى أنه يمكن أن يداس عليه بالعربات، وأشجار هذه المدينة مورقة في أيام الحر، وفي أيام البرد لا تجدها إلا بلا أوراق ورديئة المنظر إلى حد ما كأنها حطب مصلب، وأغلب الوقت في تلك المدينة، معتم في أغلب أيام الصيف وسائر أيام الشتاء، فإذا تنزه الإنسان ساعة تنكد ساعة أخرى، وذهب حظه بالرعد والبرق وانهطال المطر والصواعق، إلا أن تراكم الثلوج مع وجود مجاري البالوعات بها يقي من الوحل، وبأمر من الله عجيب، يتغير مزاج الهواء والزمن في باريس، فإنه قد يتغير مناخ اليوم الواحد وحال الزمن فجأة، فمثلاً يكون في الصباح صحو رائع ولا يظن الإنسان تغيّره، فلا يمضى الوقت إلا ويذهب الصفاء، ويخلفه المطر الشديد، وقد يتقلب اليوم بين الحر والبرد، فقليلاً ما يأمن الإنسان تغير الوقت بهذه البلاد، فمزاجها كمزاج أهلها، وعندهم ما يستعينون به على التوقي من ضرر المطر كالمظلات المسماة شمسيات للوقاية من الشمس، وهي عند الفرنسيين وقاية للمطر، وفي الحر تمشي النساء بالشمسيات ولا يمكن للرجال فعل ذلك.
واعلم يا شيخي.. أن الهواء في باريس قد يكون طيباً مناسباً للصحة، حيث أن حرها لا يصل إلى حر المحروسة في الغالب، فهو غير مألوف لدينا، وبردها وإن كان في طاقة الإنسان

تحمله، فإنه لا يمكن للناس العمل فيه إلا بتدفئة النار، ولذلك فإن سائر بيوتها ومقاهيها وحاناتها، توجد بها مداخن مبنية في الأرض، ليوقد فيها الناس الحطب، وعندهم نوع آخر عجيب يسمى المداخن «المسقوبية» وعادة توجد المدخنة أو الفرن المسماة عند الفرنساوية بوالا وهي في ظاهرها مطلية بطلاء عظيم في غاية النظافة، والمدخنة دائماً مرخمة الجوانب، ولها عرضة من حديد، وهي عند الفرنساوية يتخذونها زينة للمحال لحسن صناعتها، فيكتفون بها في الشتاء، ومن أعظم مظاهر الشتاء عندهم إكرام الضيف، وإجلاسه في مكان دافئ بقرب جهة المدفأة.

واعلم يا شيخي.. أن أرض هذه المدينة مفلحة مثمرة، فما من بيت كبير أو صغير بها، إلا وبه بستان عظيم الأشجار والزهور والخضروات وغيرها، وأغلب النباتات الغريبة توجد بهذه البلدة، فإنهم يعتنون بتطعيم النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم، فمثلا شجر النخيل الذي لا يخرج إلا في الأقاليم الحارة، ومعلوم عندنا أن النخيل لا يوجد إلا ببلاد المسلمين، فإن الفرنساوية قد صنعوا كل الحيل حتى يزرعوا منه شيئاً عندهم، طوال فصول السنة، وإن كان لا يثمر إلا أنهم يستفيدون منه في دراسة علم النباتات، كما أن طباع الإفرنج، حب النظافة الظاهرية، فإن جميع ما ابتلى به الله سبحانه وتعالى الدول المتخلفة من الإهمال ليس عندهم منه مثقال ذرة)

** ** **

-3-

مع بشائر بداية اليوم التالي، صحا رفاعة من نومه كالعادة قرب أذان الفجر، ففتح عينيه بتكاسل وكان القمر يتسلل نوره من خلال نافذة صغيرة في مواجهته، وفجأة وهو في هذا الوضع، إذ به يشعر كأنه يرى طيفاً أمام النافذة من الداخل، ففرك عينيه ليجد خيالاً لشيخ في ثياب بيضاء، متوسط القامة عريض المنكبين، وجهه أبيض كالحليب، وعيناه خضراوان، يشبه إلى حد كبير شيخه حسن العطار، على رأسه عمامة خضراء، ينزل من جانبيها بعض من شعر رأسه الذى في لون الحناء، ويبتسم ابتسامة هادئة مشرقه كلها طمأنينة، حدثه بهدوء بكلمات سمع صداها في نفسه:

- لا تجفل واطمئن يا بنى فما الحياة الدنيا، إلا رحلة انتقال من مهد إلى لحد، ولا يوجد من سار على طريق ونهج الله إلا ومر بها، واعلم أن الإنسان يخرج من كنف ضيق، إلى متسع الحياة، حتى يعود مرة ثانية من متسع الحياة إلى كنف ضيق آخر، يستوعبه بحجم عمله الذي خلفه وراءه في دنياه، فمنهم من يضيق عليه، ومنهم من يكون بمتسع الدنيا، فما بالك تعكر على نفسك.. وتعيش في كدر؟ وأنت تعلم أنك مار بها لا مخلد.

نظر إليه رفاعة في دهشة تسيطر عليه وهو لا يدري أنائم أم يقظ فقال للشيخ:

- لكن من أنت يا شيخ؟

ابتسم الشيخ في طمأنينة وهو يقول:

- لا تسأل عن أشياء إن تُبد لك قد تسوؤك؟

فقال له رفاعة وهو مطأطئ الرأس:

- لقد قست عليَّ الحياة كثيراً، وتنكر لي الوالي وأمر بنفيي، وصرت كما ترى لا أعرف لي طريقاً ولا ملاذاً، لقد ضاقت بي الدنيا رغم متسعها.

أشار إليه الشيخ بيده ناظراً إلى أعلى وهو يقول:

- وكيف تقول قد ضاقت بك الدنيا ولم تجد الملاذ، وقد لجأت إلى الله.. اعلم يا بنى أن الملاذ إلى الله لكل خلقه، ولكن هناك من يتعثر في السبل، أما الطريق فقد أرسل الله لك إشارة البدء إليه، وتعلمت وصرت ممن تشهد لهم الحياة بالكفاءة، فسفرك وتعلمك هو إشارة البدء في الطريق الذي ستسلكه، فاجعل في طريقك الملاذ إلى الله دائماً، فهو الذي وسعت رحمته كل شيء، والذي يقول للشيء كُن فيكون، فنحن شيء، فكن على الطريق سائراً، ولا تخشى شيئاً ستشملك رعاية الله دائماً.

فجأة تناهى إلى سمع رفاعة صوت الأذان يتردد في السماء بالله أكبر، ففتح عينيه ونظر إلى مكان الشيخ فلم يجده، فتلتفت يميناً وشمالاً باحثاً عنه لكن بلا جدوى، فأصابته حالة من الهواجس نفضها عن جسده الذي يرتعش بترديد الأذان، بسمل وهو يقرأ آيات الحصن تاركاً المكان وخرج من مسكنه، وفى عقله تتخبط الأفكار وهو يسير في الطرقات، حتى وصل إلى المسجد فصلى الفجر وجلس بعض الوقت بعد انتهاء الصلاة، فقد كان يشغله أمر هذا الرجل الذي رآه، ولكنه نهض وأخذ يسير في الطرقات عائداً إلى سكنه، وما إن وصل حتى جلس متربعاً على الأرض يتلو من المصحف بعض الآيات، حتى أشرقت الشمس فخرج إلى عمله، وكان أثناء سيره ينظر إلى الشوارع والمساكن والخيم وأحوال أهل السودان التي تسيطر عليها العشوائية، فيتنهد وقد تذكر ما قرأه في الكتب الفرنسية، عن نظافة المنازل عند أهل «الفلمنك» حيث كانوا يصفونهم باهتمامهم بالنظافة وحسن المظهر، لأن مدنهم توجد بها حارات مبلطة بالحجر الأبيض النظيف، وبيوتهم مجملة من خارجها أيضاً، وشبابيكها مزينة بالزجاج، الذي يغسل دائماً مع حيطانها الخارجية أيضاً، وقد ذكروا أن الاهتمام بالنظافة يوجد أيضاً ببلاد أوروبا، وهي قليلة في أفريقيا وآسيا والنمسا وغيرهما.

ينفض عن رأسه التفكير وقرّر أن يقضي يومه في اختبار المتقدمين الجدد للدراسة بالمدرسة، وبالفعل قام بما قرّره وعندما انتهي من عمله ذهب هو ومن تبقى من زملائه، حيث تناولوا الطعام في مكان مخصص لهم بملحق المدرسة، كان هو يتناول طعامه على مهل كعادته، وعندما انتهوا ذهب كل واحد منهم إلى مسكنه، وجلس رفاعة في غرفته يسترجع ذكرياته في باريس، ويتذكر خطابه التالي إلى شيخه حسن العطار، والذي يكمل فيه وصفه لما شاهده من عجائب بلاد فرنسا فتذكر ما كتبه إليه:

(شيخي الجليل حسن العطار، بعد السلام والأشواق.. أرسل إليك هذه الرسالة لكي تطلع على ما شاهدت من أحوال وعادات أهل باريس، فاعلم يا شيخي.. أن الباريزيين يختصون بذكاء العقل ودقة الفهم وليسوا أسرى التقليد كغيرهم، بل يحبون دائماً معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى أن عامتهم أيضاً يعرفون القراءة والكتابة، ويشتركون مع غيرهم في الاطلاع على الأمور التي يتناولها علية القوم، وليس العوام بهذه البلاد جهلاء كالعوام في أكثر البلاد المتبربرة، حتى أن العلوم والفنون والصنائع، مدونة هي الأخرى في كتب حتى الصنائع الدنيئة، وكل الصناع لديهم دراية بالقراءة والكتابة فهي ضرورة لإتقان صنعتهم، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبدع في فنه شيئاً لم يسبقه به غيره، وهم غالباً يهتمون بالحقوق الواجبة عليهم، ومن طبيعتهم

عدم إهمال أشغالهم أبداً، فإنهم لا يكلون من العمل سواء الغني والفقير، وكأن لسان حالهم: «إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما» فهم يحبون أيضاً التطلع والولع بالأشياء الجديدة، وحب التبديل في سائر الأمور خصوصاً في الملبس، وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملابسهم بالكلية بل إنهم يتنوعون فيها، ومن طباعهم المهارة وخفة الظل، فإن صاحب الجاه قد تجده يجرى في الطريق كالصغير، وينتقل الإنسان منهم من الفرح إلى الحزن ومن الجد إلى الهزل والعكس في لحظات، حتى إن الإنسان قد يرتكب في يوم واحد جملة أمور متضادة وإن كانت مهمة، فإن آراءهم في السياسات نفسها قد تتغير بسرعة، وقليل من يدوم على مذهبه ورأيه ويؤيده طوال عمره، ورغم شدة ميلهم إلى أوطانهم يحبون الأسفار، فقد يمكثون السنين العديدة طوافين بين المشرق والمغرب، حتى إنهم قد يلقون بأنفسهم في المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم، وعندهم محبة للغرباء والميل إلى معاشرتهم، خصوصاً إذا كان الغريب متزيناً بالثياب النفيسة، ويحملهم على ذلك رغبة وشوق للسؤال عن أحوال البلاد وعوائد أهلها، ليظفروا بمقصدهم من ازدياد معارفهم في الحضر والسفر، واعلم يا شيخي.. إن من طبع هؤلاء الفرنسيين حب الرياء والسمعة، لا الكبر ولا الحقد، وإنما دوام الذكر يعينهم على الاجتهاد، فهم كما يقولون في مدح أنفسهم: «نحن أخلص قلوباً من الغنم عند ذبحها» وإن كانوا عند الغضب أشد افتراساً من النمور، فإن الإنسان منهم إذا غضب، قد يؤثر الموت على الحياة، فقلَّ أن يفوت زمن يسير من غير أن يقتل إنسان نفسه خصوصاً من داء الفقر أو العشق.

** **

في المساء زاره أحد رفقائه فرحب به رفاعة وقام معه بواجب الضيافة وجلسا يتسامران ويتناولان أطراف الحديث فقال له الرجل:

- شيخ رفاعة هل أنت الآن راضٍ عما أنجزناه في النهوض بتلك المدرسة؟

نظر له رفاعة وهو يقول:

- يا شيخ أبو العلاء مجهودكم معي لا يُنكر، لقد قمتم بعمل عظيم فعلاً، والحمد لله لقد أتت المحاولات ثمارها، وقد تخرّج من المدرسة تسعة وثلاثون تلميذًا بمجهودكم معي.

نظر إليه الشيخ أبو العلاء وهو يقول:

- الحمد لله.. أخبرني يا شيخ رفاعة، عن أحوال باريز وكيف كانت هيئة البارزيين؟

سرح رفاعة بفكره وهو يتذكر أهل باريس، ثم قال:

- إن أحوال باريس لا تقارن بما نحن فيه، وقد قال بعض أهل الأدب من الفرنساوية: «إن الباريزيين أشبه الناس بأهل أثينة، أو هم أثينيو هذا الزمان، وإن عقولهم رومانية وطباعهم يونانية.» وأهل باريس لون بشرتهم كانت بيضاء مشربة بالحمرة، وقلّ وجود السمرة في أهلها المتأصلين بها، ذلك لأنهم لا يزوجون الزنجية للأبيض أو العكس، في محاولة منهم للمحافظة على عدم الاختلاط بالأجناس، لما ركز في أذهانهم أن غيرهم ليس لديهم من الجمال واللطافة ما يوجد عندهم، ويصفون غيرهم من الوافدين إلى بلادهم بأنهم حسان المسايرة والملاطفة فقط، وأن المرأة شديدة البياض أبهى وأبهج، يضيء وجهها ولها ثغر مفلج.

يتمتم الشيخ أبو العلاء وهو يقول:

- عجباً كأنهم يعرفون أن اختلاط الأنساب مكروه.

ينظر إليه رفاعة وهو يقول:

- هم لا يعرفون شيئاً عما تقول، بل إن الفرنسيات يفضلن استخدام جارية ليست جميلة في الطبخ ونحوه، خشية أن يفتتن بها الرجال لعلمهم أن النساء الحسناوات، لا يهتممن بالمنزل قدر براعتهن في الزينة فقط، وهن يحببن أن يختلطن مع الرجال، وربما حدث تعارف بينهن وبين بعض الرجال، فهم لا يفرقون سواء كانت المرأة من الحرائر أو غيرهن، فالرجال يختلطون في المتنزهات بالنساء، خصوصاً يوم الأحد الذي هو عيد النصارى ويوم عطلتهم، فيقضون اليوم كله وليلة الاثنين في البارات والمراقص.

يتعجب الشيخ أبو العلاء مما يقول رفاعة، وينظر إلى السماء من خلال النافذة فينهض وهو يبتسم قائلاً:

- الحديث معك شيق يا شيخ رفاعة، ولكن الوقت أزف ولا بد أن أعود إلى سكني لأنام فغداً عندنا عمل شاق.

يودعه رفاعة ويعود إلى فراشه ويتمدد عليه، وهو يتذكر يوم أن كتب لشيخه بما رأى في باريس من عادات غريبة:

(شيخي العزيز... لقد وجدت في باريس من العادات السيئة ما قد سمعت عنها في باقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج، فهي مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، رغم ما يقال عن مدينة باريس بأنها من أحكم سائر بلاد الدنيا، ولكن المواساة عندهم بأقوالهم وأفعالهم لا بأموالهم، فهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته من الأموال، ولا يعطونها إلا إذا وثقوا بالمكافأة، والعجيب أن من طباعهم الغالية الوفاء بالوعود، وعدم الغدر وقلة الخيانة، وفي

هذا تناقض لما يفعلون). ومن العجيب يا شيخي أن الإفرنج لا يظنون بنسائهم ظناً سيئاً، مع أن هفواتهن كثيرة معهم، فإن الإنسان منهم ولو من أعيانهم، قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية وينفصل عنها مدة العمر، فلا يعتبر الآخرون بذلك مع أنه ينبغي الاحتراس منهن، واعلم يا شيخي أن من خصالهم أيضاً، صرف الأموال في حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب، فإنهم مسرفون غاية الإسراف في ذلك، ثم إن الرجال يعشقون النساء حد العبودية سواء كن جميلات أم لا، وقد قال بعضهم: «إن النساء عند الهمل معدات للذبح، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت، وعند الإفرنج كالصغار المدللين».

يتذكر ما قاله له شيخه وقتها كلما تلقى رسالة من رفاعة كان يزداد فخراً به، وكان يُزكيه عن محمد علي باشا الذي كان يهتم بأخبار بعثاته إلى بلاد أوروبا، ويخبر خاله الشيخ محمد الأنصاري عندما كان يذهب له لكي يطمئنه على رفاعة، فيشيد بنجابته وحسن إتقانه لما تعلمه منه، فكان الشيخ محمد الأنصاري يقول له:

- رفاعة هذا رفع رأس طهطا، وبيَّض وجهي أمام الجميع، فلم يخيب رجائي فيه، والفضل يعود إليك يا شيخ حسن.

فينظر إليه الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- بل قل رفع رأس المحروسة كلها، وبيض وجهي ووجه الباشا محمد علي فهو سعيد بكل ما يحرزه رفاعة من نجاح، والفضل لله وحده.

فكان يبتسم الشيخ محمد الأنصاري وهو يقول:

- ليت لي ابناً كرفاعة، ولكن الله عوَّضني به خيراً.

يبتسم له الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- رفاعة هذا هو ابنك وابني، الذي وضعت فيه كل أملي في تحصيل العلم.

فينظر له الشيخ محمد الأنصاري وهو يقول:

- لقد زرع الله في رفاعة محبة العلماء، فلا أنسى خطابه الذي يذكر فيه محبة مسيو جومار له واهتمامه به.

يبتسم الشيخ حسن العطار وهو يقول:

- وهذا ما ذكره لي في رسائله، فأنت تعلم أن مسيو جومار هذا كان مهندساً جاء إلى مصر مع الحملة الفرنسية، وبدلاً من أن يكون من الغزاة أسرته مصر وأحبها، وساعد في كتابة كتاب «وصف مصر» الذي كتبه علماء الحملة الفرنساوية، شأنه شأن الجنرال «سليمان باشا

الفرنسي» الذي أقام بمصر وعينه الباشا قائداً في الجيش، ومسؤولاً في المدرسة الحربية.
يتعجب الشيخ محمد الأنصاري وهو يقول:
- جومار هذا رجل عظيم حقاً.
يبتسم الشيخ حسن العطار وهو يجيبه:
- وستعلم عظمته ونبل أخلاقه، عندما تعلم أن الباشا محمد علي عندما عينه مسؤولاً عن البعثة في فرنسا، وافق ولكنه اشترط بأن لا يأخذ أجراً نظير عمله هذا، رغم أن الباشا عرض عليه مبلغ «عشرة آلاف فرنك» في السنة، فرفض وطلب أن يكون إشرافه على البعثة مجاناً.
اندهش الشيخ محمد الأنصاري وهو يسمع ذلك قائلاً:
- لله در هذا الرجل، هل يوجد من يفعل ذلك!
فأجابه الشيخ حسن العطار:
- بل إنه أرسل إلى الباشا بشأن رفاعة، وأخبره أنه سيكون أول مصري يستطيع الترجمة من الفرنسية.
وقتها رفع الشيخ محمد الأنصاري يده إلى السماء داعياً:
- لله درك يا ابن أختي، لقد رفعت رأس المحروسة عالياً، وبيَّضت وجوهنا ووجوه أهل مصر جميعاً، اللهم وفّقه لما تحبه وترضاه.
علت الابتسامة وجه الشيخ حسن العطار وهو يرفع يده ويقول:
- اللهم آمين.

** ** **

الفصل الثامن

-1-

رجل الأقدار

«اعْمَلُوا. فَكُلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»

كان رفاعة كلما وقف في تلك المدرسة التي كانت حجة لنفيه، يتأملها ويفكر في حاله فرغم اجتهاده هو ومن معه في إنشائها، لم تكن في صورة المدارس التي تولى إدارتها بعد عودته من فرنسا، تعود به الذكريات إلى بداية عودته من باريس، واستقبال عزيز مصر محمد علي باشا حينها له ولكل أفراد البعثة، وأولى المهام التي كلّفه بها، كانت وظيفة مترجم بمدرسة الطب ليكون أول مصري يعين في مثل هذا العمل، حيث إن القائمين بأمور الترجمة في مصر قبله مترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم، وكانوا يستعينون في عملهم بما جمعوه من ثروة لغوية من خلال مراجعتهم لكتب علوم اللغة في التراث العربي، ليطلعوا فيها على المصطلحات التي تلبي مطالب عملهم، الذي اقتصر على ترجمة ما يلقيه المدرسون الأجانب بلغاتهم الأوربية إلى العربية في محاضرات الطلبة، الذين كانوا لا يعرفون سوى العربية ومع ذلك لم تكن مهمتهم باليسيرة، ولا عملهم وافياً بالغرض المطلوب أيضاً.

وعندما ذهب رفاعة ليتسلم عمله كمترجم بمدرسة الطب، استقبله رئيس قسم التراجم بها، وكان يدعى «يوحنا عنحوري» وقد طلب منه الوالي محمد علي باشا أن يمتحن المترجم الجديد، فأعطى رفاعة فصلاً من كتاب، وقال له:

- ترجمه في مجلسنا هذا.

فقام رفاعة بترجمته وعرضه عليه، فلما قرأه لم يتمالك نفسه من الإعجاب به، وتوجه بما ترجمه رفاعة إلى ديوان المدارس وقال للرؤساء هناك:

- رفاعة الطهطاوي هذا أستاذ! وهو أحق مني بالرئاسة لأنه أدرى منى بالتعريب والتنقيح والتهذيب، وهذه هي شهادة الحق التي تقضي له بالسبق.

وأمضى رفاعة في عمله بمدرسة الطب عامين أنجز فيهما مراجعة الترجمة، التي قام بها شخص يُدعى «يوسف فرعون» لكتاب «التوضيح لألفاظ التشريح» أما التصحيح اللغوي لهذه

الترجمة، فقد قام به شيخ يسمى «مصطفى كساب» فخرجت نسخة الكتاب كاملة، من حيث الترجمة والمراجعة والتصحيح باللغة العربية، وفي أحد الأيام استدعى والي مصر محمد علي باشا رفاعة وقال له:

- شيخ رفاعة بعد ما وصلني من مجهود قمت أنت به في مدرسة الطب، أريد منك أن تشرف على المدرسة التجهيزية «بالمارستان».

وانشرح صدر رفاعة وهو يقول بفرحة للوالي:

- هذا شرف كبير لي يا ولي النعم، سأكون عند حسن ظنك إن شاء الله.

وذهب من فوره إلى المدرسة التجهيزية للطب «المارستان» للإشراف عليها، إلى جانب عمله في مدرسة الطب والتي يدرس فيها الطلاب، الحساب والهندسة ووصف الكون والتاريخ الطبيعي، والتاريخ القديم والحديث والمنطق، ولم يستمر رفاعة في مكان ثابت من يومها، فقد انتقل بعد ذلك من مدرسة الطب إلى مدرسة «الطوبجية- المدفعية- بطره» في ضواحي القاهرة، كي يعمل مترجماً للعلوم الهندسية والفنون العسكرية، وكان ناظر هذه المدرسة يدعى «دون أنتونيو دي سكويرا بك» وكان إسباني الأصل ولم يكن على وفاق مع فرنسا والفرنسيين، ولم يكن يميل إلى الثقافة الفرنسية، وحدث صدام بينه وبين رفاعة وتصاعد حتى قرّر رفاعة ترك العمل بالمدرسة، فغادرها دون استئذان ليذهب إلى الصعيد حيث بلدته طهطا، وانتشر وقتها في القاهرة وباء الطاعون، وخرج الكثيرون من مصر هرباً من هذا الوباء، أخذ رفاعة أسرته إلى طهطا ومكث هناك ستة أشهر، ترجم في شهرين منها مجلداً من جغرافية «ملطبرون» وبعد تلك المدة جاءه خبر بطلب الوالي محمد علي له، فعاد إلى القاهرة مسرعاً، وعندما قابل الوالي الذي استدعى معه الشيخ حسن العطار للوقوف على آخر تطور عمله، قدّم له رفاعة ترجمته لكتاب جغرافية ملطبرون، وأعجب محمد علي باشا بمجهود رفاعة وأثنى عليه، وانتهز رفاعة فرصة هذا الرضى من الوالي، فطلب منه إعفاءه من الترجمة بمدرسة الطوبجية ولم يبد سبب خلافاته مع دون سكويرا، وأجابه محمد علي باشا إلى طلبه، وعرض عليه رفاعة مشروعاً كان يحلم بتحقيقه، فقال للوالي:

- اسمح لي يا ولي النعم.. إني أطمع في إنشاء مدرسة جامعة مصرية على غرار مدرسة اللغات الشرقية بباريس، نسميها مدرسة الترجمة.

فقال له محمد علي باشا:

- تريد يا شيخ رفاعة إنشاء مدرسة جامعة، هذا عمل عظيم شيخ رفاعة.

فتدخل الشيخ حسن العطار قائلاً:
- إن رفاعة هو ربيب نعمتكم يا ولي النعم، وإنما يطمع في تحسين التعليم تحت ظل حكمكم، ومشاريعكم في تطوير مصر الحديثة، حيث يمكن يا ولي النعم أن ينتفع بها الوطن، ويستغني عن الدخيل.
قهقه الوالي محمد علي باشا وهو يقول:
- جميل يا شيخ حسن عطار طموح الشيخ رفاعة هذا.
ثم وجّه حديثه إلى رفاعة وهو يقول:
- ولكن قل لي يا شيخ رفاعة من سيقوم بتجهيز تلك المدرسة ويختار طلابها؟
فقال له رفاعة:
- إن سمحتم لي دولتكم يا ولي النعم، سأقوم أنا بذلك مستعيناً ببعض الأساتذة الفضلاء من مدرسة الطب والمهندس خانة، إلى جانب بعض العلماء الذين درسوا في الأزهر الشريف.
فنظر إليه محمد علي باشا وهو يقول:
- عظيم شيخ رفاعة هل تصلح سراي «الدفتردار» لإنشاء تلك المدرسة؟
فقال له رفاعة وقد غمرته الفرحة:
- نعم تصلح جداً يا ولي النعم.
فقال له الوالي محمد علي باشا:
- إذا ابدأ في عمل ذلك.. وقد أنعمنا عليك بضيعة في بلدكم، كما منحناك رتبة «صول قول أغاسي» شيخ رفاعة.
فتملكت رفاعة الغبطة وهو يردد:
- شكراً لك يا ولي النعم.. سأكون عند حسن ظنكم.
وانصرف رفاعة ومعه الشيخ حسن العطار، وقد تملكهما طموح في الارتقاء بالتعليم كما كانا يريدان، ومنذ الوهلة الأولى بدأ رفاعة ومعه اثنان من شيوخ الأزهر، في المرور على البلدان لاختبار الطلاب، الذين سيكونون بذرة مدرسة الترجمة وبعد مجهود استغرق عدة أشهر، اختار ومن معه مجموعة من النجباء، ليبدأ بهم في مدرسة الترجمة وبذلك يكون قد خطا الخطوة الأولى نحو تحقيق حلمه، وكانت خطته أن ينشئ بالتدريج عدداً من المدارس الخاصة، تجتمع مع بعضها لتكون الجامعة التي يحلم بإقامتها.
وبمساعدة شيخه وبعض المهتمين بالتعليم قام بإنشاء مدرسة التاريخ والجغرافيا وألقى على

طلبتها فصولاً ترجمها في الجغرافيا، ثم طبعها في كتاب اسماه «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية» هذا الكتاب الذي أرّخ في مقدمته لإنشاء هذه المدرسة، وذكر فيها خبر قيام هذه المدرسة بقوله: (إنه لمّا سمحت مشورة الجهادية، أن أفتح لفنون الجغرافيا والتاريخ مدرسة، فانتخبت عدة تلاميذ ليكونوا بذرة نجاح لهذا المعنى الممدوح.)

** ** **

-2-

الألسن

كان رفاعة ينظر إلى هذا المبنى الهزيل الذي يقف فيه وجلس على أريكة بالفناء وهو يتذكر عمله بمدرسة الترجمة، فقد كان يعمل فيها كأصحاب الرسالات لا عمل الموظفين، وأشرف عليها الإشراف الفني والإداري، وقام بتدريس الأدب الغربي والشرائع الإسلامية، واختار الكتب المرشحة للترجمة ووزعها على المترجمين، ثم قام بمراجعة وتهذيب تلك الترجمات، وقد غيّر اسم المدرسة من مدرسة الترجمة إلى مدرسة «الألسن» وكان اختياره للتلاميذ والكتب التي يدرسونها على مستوى ما وصله هو في تأليفه وترجماته، حتى يستطيع إيصال ما في الكتب إليهم بسهولة، وظل يقوم بالتدريس بها بجانب إدارته لها، وأحياناً يظل طوال اليوم دون وقت محدد للدراسة، ويستغرق في الحصة الواحدة إلى أربع ساعات واقفاً على قدميه، يدرس لطلابه اللغة والشرائع وفنون الإدارة، إلى جانب تدريس كتب فنون الآداب العالمية، حيث كان في بعض الأحيان يستغرق في الدروس حتى يحل المساء، وكأنه يسابق الزمن في إنجاز مهمته تلك، ولم يكن يُقصر أيضاً فيما يقوم به من الترجمة والتأليف.

يتذكر رفاعة بعدما مر عام على إنشاء مدرسة الألسن، وحان الوقت لتتخرج أول دفعة منها وكان عددها عشرين طالباً، وقد وقف ليلقي عليهم مقولة وجيزة في حفل تخريج الدفعة الأولى قائلاً: (لا يخفى أن أصل تصدّينا لإنشاء هذه المدرسة، هو حب إيصال النفع إلى الوطن، الذي حبّه من الإيمان، وتقليل التغرب في بلاد أوروبا، حيث لا يتيسر ذلك لكل إنسان.)

تذكر عندما رأى في باريس المسلّة التي أهداها محمد علي باشا إلى الفرنسيين تعبيراً عن صداقته لهم، وعلى الرغم من إعجابه بمحمد علي باشا، كتب رسالة لشيخه حسن العطار يقول فيها: (هل تعلم يا شيخي أن البرابي المشهورة عندنا بالمسلات، قد تم نقل اثنتين منها إلى بلاد الإفرنج، إحداهما نقلت إلى روما في وقت ما، والأخرى نقلت إلى باريس وقد أهداها الباشا

محمد علي لهم.)
وقتها بدأ اهتمام رفاعة أيضاً بالحضارة المصرية القديمة، فعندما أخذت مدرسة الألسن شكلها النهائي، فكر رفاعة في جمع بعض الآثار المصرية القديمة، ليحافظ عليها من السلب والنهب، وفكّر في أن يضعها في حديقة مدرسة الألسن والاعتناء بها، لتكون حسنة المظهر وتدل على عظمة المصري منذ القدم، وكان قد شاهد بعض ما يفعله الفرنسيون، في منشآتهم كاهتمامهم ببعض التّحف، وكانت تلك هي بذرة إنشاء أول متحف في مصر لآثارها، وتقدم إلى الوالي بطلب لجمع بعض تلك الآثار، فكان رد محمد علي باشا بقوله:
- عظيم شيخ رفاعة.. تريد أن تجمع بعض الآثار المصرية، في المدرسة لتزينها وتكون حسنة المنظر، جميل شيخ رفاعة.
فنظر له رفاعة وهو يقول:
- إنما أردت أيضاً يا ولي النعم، أن يشاهد العالم عظمة الفن المصري منذ القدم، ويعلموا أنما أمرك بإنشاء تلك المدرسة، هو امتداد لدور عظماء مصر في تذوقهم للفن والعلوم.
ضحك محمد علي باشا كعادته وهو يقول:
- جميل شيخ رفاعة.. هل ترانا حقاً من عظماء حكام مصر؟
رفع رفاعة يده لأعلى وهو يقول:
- بل أنت أعظم من تولى مصر، في العصر الحديث يا ولي النعم.
سُرّ محمد علي باشا بقول رفاعة وقال:
- أشكرك شيخ رفاعة فأنت رجل عظيم.. وقد أمرنا بإنشاء هذا المشروع.
وعلى الفور بدأ حينها رفاعة في جمع بعض تلك القطع الأثرية التي يجدها المصريون، وحوّل جزءاً من فناء مدرسة الألسن إلى نواة لأول متحف للآثار في مصر، ونشرت جريدة الوقائع المصرية المشروع الذي ينص على أن تُسلّم جميع الآثار التي يجدها الأفراد، إلى مدير مدرسة الألسن.
كان رفاعة ينظر إلى المكان حوله وهو يتذكر اهتمامه الذي يفوق كل دوافع المثقف العادي بتلك الآثار، فقد كان موقفاً وطنياً من الدرجة الأولى، وغيرة على تراث بلده وحبه لحفظ تاريخه العظيم.
عندها لمع اسم مدرسة الألسن، بعد تفوق تلاميذ الفرقة النهائية الذين كانوا يترجمون كتباً في التاريخ والأدب، وقد وصلوا لتلك المرتبة بفضل توجيه رفاعة لهم، وقد شجعه هذا على

الذهاب إلى الوالي محمد علي باشا لإصدار أمر بتعيين هؤلاء المتفوقين من الدفعة الأولى، لتدريس العربية والفرنسية بنفس المدرسة، وعُيِّن آخرون منهم في مدرسة «المهندس خانة» ومنهم من عُيّن ببعض المدارس الأخرى وبعض المصالح الحكومية المختلفة، وكان شرط الترقي لأي منهم هو ترجمة كتاب من الكتب التي يختارها رفاعة ويشرف على مراجعتها، ثم يدفع بها بعد ذلك إلى مطبعة بولاق، وبهذا المجهود الجبار أصبحت مدرسة الألسن، تأخذ الشكل والمضمون الحقيقيين للجامعة المدنية، في وقت لم تكن مصر قد طالتها أيدي التمدن كأروبا، وتوافد على المدرسة من يطلبون العلم من كل حدب وصوب، بعدما علموا بخبر طباعة ترجمات الخريجين من المدرسة، وأصبحت محاولات رفاعة للنهوض بالمدرسة، هي أول طريق لمعرفة المصريين التحضر والتمدن. لقد كان هو الزارع الذي ألقى بالبذور في أرض مصر الخصبة، لكي تنمو فيها بساتين العلم من جديد، بعدما كانت قديماً مزدهرة بالفنون والعلوم أيام القدماء المصريين.

ابتسم رفاعة وهو يتذكر عندما استدعاه عزيز مصر محمد علي باشا ليكافئه على المجهود الذي بذله في تلك المدرسة، وعندما مَثُل رفاعة بين يديه ابتدره محمد علي باشا بقوله:

- مرحبا شيخ رفاعة، لقد كنت عند حسن ظني بك حقاً، لقد حقّقت مدرسة الألسن نجاحاً عظيماً.

تنحنح رفاعة وهو يقول:

- كلّه بفضل رعاية دولتكم يا ولي النعم.

قهقه محمد علي باشا، وهو يقول:

- أنت تستحق مكافأة شيخ رفاعة، لقد أمرنا بترقيتك إلى رتبة «أمير ألاي» الرفيعة وأصبحت من الآن رفاعة بك وأنعمنا عليك بعطايا من النعم.

تهللت أسارير رفاعة وهو يقول:

- كل ما تنعمون به علينا يا ولي النعم، هو من عظيم إحسانكم.

ثم نظر إليه محمد علي باشا وقال:

- أريدك شيخ رفاعة أن تتولى الإشراف على «جريدة الوقائع».

اعترت رفاعة فرحة وهو يقول:

- دام فضلكم يا ولي النعم، سأكون عند حسن ظنكم.

ابتسم محمد علي باشا وهو يقول:

- سنأمر مجلس المشورة بتفويضكم في هذا الأمر.

وفي اليوم التالي قرّر مجلس المشورة إحالة أمر جريدة الوقائع إلى رفاعة، ونشر نص قرار مجلس المشورة بها بالبنط العريض: (حيث إن حضرة الشيخ رفاعة الطهطاوي، سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية، تحال له أعمال إفراغ الترجمة في قالب حسن، بدون الإخلال بالأصل، ويتولى تنظيم المواد حسب النظام التركي، حضرة حسين أفندي ناظر المطبعة العامرة.)

وكانت الوقائع منذ صدورها، تصدر باللغتين التركية والعربية، وكانت صفحاتها تنقسم إلى عمودين، تكتب المادة باللغة التركية في العمود الأيمن، وترجمتها إلى اللغة العربية تكتب في العمود الأيسر، ومنذ أن تولى رفاعة تحريرها بدأ بإعادة ترتيب أعمدتها، بحيث صارت اللغة العربية الأصل تحتل الجانب الأيمن من صفحاتها وتترجم إلى اللغة التركية في الجانب الأيسر، وطور إخراجها وأجرى عليها التجديدات في مادتها التركية، التي كانت تترجم إلى اللغة العربية ترجمة ركيكة، فأصبحت الترجمة تلتزم تحري الدقة، دون الإخلال بمضمون المادة التركية، وأصبحت تسمى جريدة الوقائع المصرية منذ ذلك الوقت، وصارت أول صحيفة مصرية، تترجم مادتها إلى التركية وليس العكس، وسطع اسم رفاعة كأول منشئ لصحيفة أخبار في مصر والوطن العربي بعدما أطلق عليها اسم «الوقائع المصرية».

** **

عاد رفاعة إلى مسكنه بعدما انتهى اليوم الدراسي، وعندما انتهى من صلاته وطعامه جلس يقرأ ورده من القرآن، وما أن انتهى حتى تمدد كعادته وترك لعقله العنان للذكريات، أخذ رفاعة يتذكر مراتب الشرف التي نالها، وتمتم بينه وبين نفسه:

- رتبة أمير ألاي الرفيعة وقد صرت رفاعة بك.

ثم يتنهد وهو يكمل:

- ألقاب ورتب لا تحمي صاحبها، ليس لها قيمة فعلية الآن كل قيمتها رمزية، يعشقها أصحاب الرياء.

ينظر إلى المجهول أمام عينيه، وهو يتمتم:

- ولكنك كنت مدفوعاً بالأمل يا رفاعة بعدما أصبحت تلقب برفاعة بك، وسعيت وراء نجاحاتك في كل ما يسند إليك، وكم كنت سعيداً جداً عندما قرّر عزيز مصر محمد علي باشا إرسال بعثة أخرى إلى فرنسا بها شباب مجتهد، ولكن سنّة الحياة عدم ثبات الحال، فلم تستمر بك تلك الفترة

كثيراً، فبعد مرض محمد علي باشا، تولى ابنه إبراهيم باشا، القائد الهمام مقاليد الحكم، وحصّن مصر، وجعل لها درعاً قوياً في مواجهة أي عدوان عليها، ولم يكن دوام الحال مستمراً، فمرض إبراهيم باشا قبل أن يتم مدة قصيرة، ومات تاركاً خلفه مجداً حربياً وعطاءً لمصر، يذكره به التاريخ الحديث على مرّ العصور.

زفر بقوة عندما وصل إلى تلك المحطة من حياته وتمتم:

- وبعدها جاء إلى الحكم الوالي الجديد عباس حلمي صاحب الفكر الرجعي، هذا الرجل الذي لا يحب الانتصارات العظيمة ولا يسعى إليها، حتى ما بدأه غيره لم يكن يريد أن يتمه، كأنه حاقد على ما بدأه جده محمد علي باشا، من تطوير في التعليم وتقوية الجيش، فكل سعيه الطمع في أن تصبح سلطة الحكم المطلقة بيديه فقط، وقد أبعد كل أفراد العائلة العلوية وحرمهم من الميراث، وقام بفصل كل من هم في المعية الخديوية، وعندما توفي محمد علي باشا، بدأ في أبعاد وإقصاء كل من كان قريب الصلة بجده محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا، وطارد كل أنصار عزيز مصر محمد علي باشا وعزلهم من مناصبهم، وكنت أنت على رأسهم يا رفاعة بك يا طهطاوي!

نهض رفاعة وأخذ يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً، وفي عقله صارت الأفكار كالحمم البركانية التي كادت تحرق كيانه، كم كره التعسف والجهل كم كره الخمول وعدم السعي، طافت بخلده الذكريات القريبة التي بدأت قبيل نفيه، حينها كان عباس حلمي قد بدأ أول انقلابه على منهج أسلافه بعملية تصفية المدارس، بحجة عدم الاستدانة من الخارج، وعلى رأس القائمة كانت مدرسة الألسن حلم رفاعة في إنشاء أول جامعة مدنية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وبدأت عملية التصفية عندما ألغى قسم الفقه فيها، ثم فصل عدداً كبيراً من طلابها، وعندما قرّر رفاعة مواجهته وطلب الإذن في المقابلة، رغم معارضة الكثيرين من حوله، وقف أمام الوالي عباس حلمي وقال له:

- اسمح لي يا ولي النعم.. بأن أعرض عليك وجهة نظري في تصفية وغلق بعض المدارس.

فنظر إليه عباس حلمي باستخفاف وقال:

- هه وجهة نظرك... ماذا تريد شيخ رفاعة، إغلاق المدارس سيستمر، فأنا لن أستدين من أجل تعليم المصريين.

فنظر إليه رفاعة وهو يقول:

-التعليم أساس نهضة أي بلد.

فقهقه الوالي وهو يقول:

- وأي نهضة تريدها للمصريين هؤلاء فلاحين، يزرعون الأرض فقط.
حاول رفاعة كتم صياحه رغماً عنه، وهو يحاول تهدئة نفسه ليخرج كلامه في هدوء وقال:
- ولكنك تقوم بتصفية مدرسة الألسن، التي جاهدت بمساعدة ولي النعم عزيز مصر محمد علي باشا بإنشائها.
نظر إليه عباس حلمي وهو يقول:
- وسوف أنقلها من مقرها من «الأزبكية» إلى مكان مدرسة «المبتديان بالناصرية».
نظر إليه رفاعة وهو يكاد ينفجر من الغضب وقال متمالكاً جأشه:
- ولكن يا مولاي.
فقاطعه عباس حلمي وهو يصيح:
- شيخ رفاعة لا يوجد لكن، انصرف شيخ رفاعة.. انصرف.
يتذكر عندما خرج من القلعة، وجلس يومها في بيته حزيناً على ما وصلت إليه الأمور، وقد علم أن المواجهة مع الوالي عباس حلمي لن تؤدي إلى نتائج إيجابية، وبعد أيام من هذا النقل الذي أخبره به الوالي، قام بإلغاء مدرسة الألسن وأغلق أبوابها، وضم بقية طلابها إلى «المدرسة التجهيزية» ولكنه قام بإلغاء هذه المدرسة أيضاً، وبعد أقل من ستة أشهر من إغلاق أبواب هذه الجامعة وتصفيتها، وفي تلك الأثناء جاء إلى رفاعة قرار مغلّف من «المجلس المخصوص» بالندب إلى السودان لإنشاء أول مدرسة ابتدائية «بالخرطوم»!!

** ** **

الفصل التاسع

-1-

طريق واحد للعودة

لا تعجبن رويداً إنها دول
دنيا تنقل من قوم إلى قوم

ظل رفاعة طيلة أربع سنوات في عمله بالسودان، رأى خلالها وعرف الكثير من عادات أهل السودان وتقاليدهم وقام بتدوينها، وحاول تغيير بعض المفاهيم لدى من يعيشون بها، ولكن أغلب محاولاته باءت بالفشل في بدايتها إلى أن افتتح المدرسة، وبدأ القوم يقبلون عليها، ورغم ذلك لم يكره رفاعة السودان كبلد نُفي إليه، ولا السودانيين كشعب ولا الخرطوم كمكان، وإنما كره في هذا المكان معنى المنفى فلم تكن هناك شبهة عنصرية، يكره بسببها رفاعة السودانيين ولا بلادهم، وعندما حدّثه أحد رفاقه عن ذلك نظر إليه في دهشة وهو يقول:

- نحن غصنان ضمنا عاطف الوجد جميعاً في الحب ضم النطاق

وقد ذكر لصديقه بأنه قد ثارت نفسه فقط عندما شعر بتعطيل كفاءته، وما أصابه من الذبول والمرض عندما قدم إلى هنا، وذلك الموت الذي التهم بعض زملائهم، فخيم عليه الحزن على مدار تلك السنين، ثم شرد بذهنه وهو يتذكر رثاء نفسه وزملائه بأبيات من الشعر الحزين، في رثاء زميله «محمد أفندي بيومي» الذي مات بين يديه، وكان رفيقاً له في البعثة بباريس، وأستاذاً للرياضيات في المهندس خانة، ورئيساً لأحد أقسام الترجمة فتمتم: **(وحسبي فتكها بنصيف صحبي ... كأن وظيفتي لبس الحداد...)**

ولم يستسلم رفاعة لأحزان المنفى وآلامه، فنظر إلى رفيقه وهو يقول:

- الحمد لله رغم ذلك نجحنا فيما جئنا من أجله وقد انتهيت أيضاً من ترجمة رواية مغامرات تلماك للقسيس الفرنسي فلون، لتكون ترجمتها رافداً جديداً للأدب العربي الحديث، كأول رواية فرنسية على غرار أساطير اليونان.

ابتسم صديقه وهو يقول:

- أنت رجل همام يا شيخ رفاعة ولك عزم في تحقيق أهدافك.

وكانت الأخبار تصل إلى رفاعة في منفاه، عن مساعي شاب عائد من آخر بعثة أرسلها محمد علي باشا إلى فرنسا، علم أن اسمه «علي مبارك» وقد أصبحت له حظوة عند الوالي عباس حلمي، رغم أنه قد أمر بعودة البعثة التي كان بها قبل أن تكمل مدتها، إلا أنه قد ضم علي مبارك إلى المعية الخديوية، وعلم رفاعة من أحد الوافدين بما يقوم به الوالي عندما كلف علي مبارك ببعض المهام من ضمنها تخفيض تكاليف التعليم، وحكى له الرجل كيف طلب عباس حلمي من ناظر ديوان المدارس «لامبير بك» وقتها وضع لائحة بما تشتمله مصاريف التعليم، وعندما قدمها له ناظر ديوان المدارس وجد قيمة مصروفاتها كبيرة، فرفضها عباس حلمي متعللاً أن هذا المبلغ كثير، وهو يريد لائحة أقل من ذلك، فأخبره لامبير بك:

- يا ولي النعم إن هذه اللائحة هي أقل تكاليف، من الممكن أن تقوم بها مصاريف المدارس.

فصاح به الوالي عباس حلمي:

- أنتم تريدون مني أن أصرف كل هذا على التعليم، إن صرفته فسوف أستدين، لا.. لابد من تخفيضها فلن أستدين.

فقال له لامبير بك:

- مستحيل يا ولي النعم، فتكاليف التعليم عالية، وهذا أقل ما يمكن العمل به.

فقال له عباس حلمي بعناد:

- إن لم تقم بتخفيضها، سوف ألغي التعليم وأغلق باقي المدارس.

فنظر له لامبير بك بدهشة وهو يقول:

- لا أستطيع يا ولي النعم، هذا أقل شيء يمكن العمل به.

فأمره عباس حلمي بالانصراف، واستدعى علي مبارك ومعه اثنان من زملاء بعثته «علي إبراهيم وحماد عبد العاطي» وكلّفهم بتخفيض مصاريف هذه اللائحة، وعمل علي مبارك بكل جهد في إمكانية تخفيض مصاريف التعليم، خشية أن يقوم عباس بتنفيذ تهديده بغلق باقي المدارس.

ولم يعلم رفاعة ما دار من جدال حول هذه المهمة، فلم يكن صديقا علي مبارك موافقان على القيام بتلك المهمة الصعبة، وعندما انصرفوا من عند الوالي وقف حماد عبد العاطي وهو يحدث علي مبارك بشيء من الاستنكار:

- أنت تريد أن تورّطنا في عمل شيء صعب، يستحيل تخفيض ميزانية التعليم أكثر مما هي عليه.

وصاح علي إبراهيم وهو يضرب كفاً بكف:
- كيف تقوم العملية التعليمية بمهمتها الحقيقية تحت تخفيض رهيب لميزانيتها.
نظر لهما علي مبارك وهو يقول:
- لا بد من إيجاد حل، وإلا سينفذ عباس باشا تهديده ويغلق المدارس، وعندها ستفقد مصر أهم طريق للنهوض.
وعندما انصرف كل منهم إلى بيته كانوا لا يعرفون ما الذي يمكن فعله، للوصول إلى مبتغى الوالي عباس حلمي، ورغم صعوبة الوصول إلى المستوى الذي يرتضيه الوالي، ظل علي مبارك يواصل الليل بالنهار لمدة أسبوع، يعمل بلا كلل أو ملل حتى أنجز المهمة، وذهب إلى الوالي عباس حلمي وقدّم له لائحة بالمطلوب، وكان ذلك من أهم العوامل التي جعلت الوالي، ينتخبه هو ومن معه لكي يقوموا بالتفتيش على المدارس، وبعدها عيّنه ليكون مهندساً في استكمال مشروع القناطر الخيرية.
كان رفاعة يجلس في المدرسة ووصلته تلك الأخبار وكان غير مصدق، كيف لرجل مثل علي مبارك أن يستطيع تنفيذ مشاريع، تحت حكم عباس حلمي الذي تغلّفه الأهواء، وأثناء جلوسه في أحد الأيام دخل عليه أحد أصدقائه وهو يصيح:
- هل وصلتك آخر أخبار المحروسة، لقد قام عباس حلمي باشا بتوقيع اتفاقية مدّ أول خط سكة حديد في مصر؟
فانتفض رفاعة من مكانه في فرح غير مصدق وهو يقول:
- ماذا تقول؟ إن كان عباس باشا فعلها حقاً فسوف يكون هذا إنجازاً عظيماً، ولكن كيف؟
فقال له صديقه:
- لقد عرض عليه الإنجليز هذا المشروع، ليوقفوا مشروع حفر قناة السويس الذي كان يسعى إليه الفرنسيس.
فقال رفاعة:
- هذا مشروع أعظم في فائدته من حفر القناة.
وكان هذا الحدث العظيم سبباً في فرح رفاعة، رغم غضبه من الوالي عباس حلمي ولكنه لم يتمالك نفسه من الإشادة بهذا المشروع، وظلّ يتابع نشاط علي مبارك بكل اهتمام وفرح، فقد شعر بأنه يكمل ما أراده على أرض الواقع، في ظل الظروف الصعبة والإمكانيات الشحيحة.
وفي إحدى الليالي أثناء جلوس رفاعة في مسكنه، أخذته غفوة فرأى طيف الشيخ مرة أخرى

واقفاً يشير إليه قائلاً:
- أبشر يا بني واستعن بالله تعالى في جميع أمورك، وكن فيها عابداً، وصُن قصدك وعزمك فقمة اليقين، أن يأتي يوم ترسو فيه سفينتك على شاطئها، كما رست سفن الآخرين، حتى وإن مرت عليك النكبات واحدة تلو أخرى، وأنت صابر متجلد غير متخاذل، سيكون السير قريباً في الطريق الذي قدّره الله لك.
وفي اليوم التالي وهو في المدرسة، استدعاه الحكمدار وعندما ذهب إليه ابتدره قائلاً:
- أبشر يا شيخ رفاعة، فلقد اقتربت لحظة انتهاء هذا المقام لك.
فنظر له رفاعة بتعجب وهو يقول:
- كيف بالله عليك يا حضرة الحكمدار؟
أشار إليه الحكمدار وهو يقول:
- وصلت أخبار عن اغتيال الباشا عباس حلمي.
تضاربت مشاعر رفاعة عند سماعه هذا الخبر وهو يقول:
- هل وفاة الباشا عباس حلمي كانت اغتيالاً؟
أومأ الحكمدار برأسه وهو يكمل:
- نعم لقد وصلت أنباء بأنه اغتيل بقصره في بنها.
عند سماع رفاعة هذا الخبر صارت مشاعر رفاعة حينها متناقضة، بين الحزن على ما حدث لوالي مصر، وبين فرحته من قرب أجل عودته إلى موطنه، فبموت الوالي عباس حلمي تصبح إمكانية الرجوع إلى مصر قريبة، وخصوصاً بعدما علم من الحكمدار أن «محمد سعيد باشا» عم عباس حلمي باشا قد خلفه في تولية العرش، ومرّت أيام ثقيلة على رفاعة، وهو على غير علم بما يحدث في مصر، ولكنه فوجئ في أحد الأيام بوصول فرمان من سعيد باشا بعودته هو ومن معه إلى المحروسة، وعندما جاءه الفرج وبشرى النجاة من هذا الكرب، وعلم رفاعة أن هناك من يتهم «نازلي هانم بنت محمد علي باشا» في مقتل ابن أخيها الوالي عباس حلمي بعدما تآمرت عليه للثأر منه، لحرمانها من الميراث وطردها خارج مصر، والتي رأت من بطش عباس حلمي ما جعلها تهرب إلى الأستانة خوفاُ من محاولة عباس حلمي قتلها، وبعد موته عادت إلى مصر خوفاً من انتقام ابنه إلهامي باشا، وشملها أخوها «محمد سعيد باشا» بحمايته، بعدما تولى حكم مصر، وأصدر فرماناً بعودة المنفيين في السودان.
وأسرع رفاعة ومن تبقى معه من زملائه لتجهيز أنفسهم للعودة، متوسمين خيراً في الوالي

الجديد، حيث أنهم كانوا قد سمعوا بأن محمد سعيد باشا ذو فكر حر وميول لبلاد أوروبا، وعلموا بأنه فور توليه اجتهد على أن يبعث الحياة مرة أخرى في المؤسسات، التي بدأت في عهد محمد علي باشا ونجله إبراهيم باشا والتي أصر على غلقها الوالي عباس حلمي في عهده، وفرح بتلك البشرى وسارع إلى ركوب النيل في طريقه إلى رحاب القاهرة.

** **

وعلى صفحة مياه النيل سار المركب برفاعة ومن تبقى من زملائه، وجلس رفاعة يتذكر رحلة عودته من باريس، منتصراً بما حققه من العلوم التي حصّلها هناك، فهناك لم يؤثر ما رآه وشاهده على عقيدته ونفسيته بل زاد من علمه، كما لم يحبطه بعض ما سمعه في باريس عن بدائية بلاد الشرق، بل أثمرت لديه كل تلك الأشياء، وكشفت عنده عن روح العزيمة والتحدي والسعي، لإثبات قدرة العقل المصري على النهوض ببلده، ونمى لديه الوعي الجيد لمعرفة كيف يسير نهر الحضارة الإنسانية، الذي يسري مع الزمن عبر القارات وبين الشعوب على عكس ما رآه في تلك الرحلة.

فالفرنسيون يحسنون التفريق العقلي، وهم ينكرون خوارق العادات، على عكس بلاده وما رأى في السودان، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلّف الأمور الطبيعية، ويعتقدون أن الأديان إنما جاءت لتدل الإنسان على فعل الخير، وإن عمارة البلاد وتقدمها يكون بالآداب والعلوم، وعلم أن تلك الدول تحلّ فيها الأمور السياسية كبديل عن الأحكام الشرعية، وقرأ ما دونته الكتب من عقول حكمائهم وطبائعهم، والتي شهد لها في ذلك الوقت بأنها أعظم وأزكى من غيرها في الكثير من دول المشرق، رغم ما عرفوه من عقول فلاسفة العرب واستفادوا منه، ولكن كان يوجد لديهم ما يميزهم عن غيرهم، فلديهم قدرة على ترك المجادلات التي لا تخدم علومهم، فإذا وقعت مجادلة بين اثنين؛ فالسكوت عندهم أفضل من الكلام، وإذا وقعت حرب فالتدبير عندهم أفضل من التقدير.

وبهذه العقلية الجديدة المنفتحة على الحضارة الأوربية، رأى رفاعة حضارة الفرنسيين وتيقن بما رأى، ولم يجد في السودان ومصر غير تمسك البعض بالعادات البدائية للحياة واعتقاد البعض بالخرافات، وعدم فهمهم للدين الإسلامي الصحيح.

يتذكر كيف كانت نظرة أوروبا قبل الحروب الصليبية للشرق الإسلامي، باعتباره وثنياً يعبد النبي ويسجد للحجر الأسود وليس لديه سوى هذه الممارسات، ولكن الاحتكاك العنيف الذي صاحب الحروب الصليبية قد فتح عيون الأوربيين، على حضارة شابة وفتية كانت غائبة عن

أذهان جماهيرهم، وكان هذا الانفتاح من أهم عوامل الإصلاح في أوروبا بعد غزو الأندلس، وكان أبرز مكونات عصر النهضة عندهم والذي ارتقوا به، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الشرق عندهم معقل الوثنية ولم يعد سائداً في أوساطهم الفكرية ولا الشعبية، ذلك التقسيم البدائي الذي يقسم البشر إلى مؤمنين وكفار، فلقد أخذوا من علماء الأندلس علومهم واستفادوا من علوم الأدب واللغة، واكتسبوا النظافة من المسلمين حتى وإن طبقوها ظاهرية، وتعلموا معنى الالتزام بالمواثيق والعهود، وكلها أمور نابعة من تعاليم الدين الإسلامي، فصارت عندهم مبادئ الإسلام بدون أن يعتنقه أحدهم.

يتذكر رفاعة استقبال إبراهيم باشا بن محمد علي باشا الذي استقبل رفاعة فور وصوله من باريس إلى الإسكندرية، والحفاوة التي استقبله بها الكتخدا عندما قابل إبراهيم باشا في سرايا الباشا فأخذ يحدثه عن إعجابه به قائلاً:

- شيخ رفاعة أنت أول مصري، يحصل على منحة ولي النعم للتعلم ببلاد أوروبا.

فرفع رفاعة يديه تشكراً وهو يقول:

- هذا من فضل جودكم، ومن فضل عزيز مصر ولي النعم علينا.

فيسأله إبراهيم باشا:

- قل لي شيخ رفاعة ما نسبكم في بلدكم طهطا.

تنحنح رفاعة وهو يقول:

- أبي بدوي بن على، بن محمد، بن على، بن رافع، نسبي إلى القطب الرباني الجلالي سيدي جلال الدين أبا القاسم الطهطاوي، وينتهي نسبي بسيدنا ومولانا الإمام الحسين، بن الطاهرة فاطمة الزهراء، بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أشار إبراهيم باشا بيده إلى رفاعة وهو يقول:

- عظيم شيخ رفاعة.. نسبك إذاً شريف، أنت تستحق منا كل الاحترام.

ثم وعده بعدما عرف أنه من ذرية الأشراف بالاهتمام، وفي اليوم التالي يسافر رفاعة ومن معه إلى القاهرة، ليستقبلهم محمد علي باشا وقد شعر رفاعة من الاستقبال والحفاوة، التي حظي بها دون غيره وإعجاب الوالي به، بالفخر بما حققه من تقدم ونجاح في رحلته، وكان وقتها قد انتهى من كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز الذي صور فيه رحلته، كما أوصاه بذلك أستاذه وشيخه حسن العطار، الذي أُعجب به بعدما اطلع عليه وراجعه، ثم قام بتقديمه إلى محمد علي باشا الذي أعجب باجتهاد رفاعة، وأمر بترجمة الكتاب إلى التركية، وطبعه باللغتين العربية

والتركية، وأمر بأن توزع نسخ منه على الدواوين والمدارس المصرية، وأمر بتقريره وقراءته للانتفاع به.

يتنهد رفاعة وهو يتذكر استقبال بعض معارفه، عند عودته من رحلته الباريسية، وردود أفعال بعض شيوخ الأزهر وطلبته، حيث كانت مجادلتهم له تعكس رجعية الفكر، وقد اتهمه البعض يومها «بالإفرنجة» وصبر على ذلك عندما شعر بعدم جدوى المجادلة معهم، وطبق مبدأ عدم المجادلة الذي اكتسبه من الفرنسيين، واهتم في البحث عن طريقة تطبيق ما اكتسبه من بعثته، وعاونه في ذلك شيخه حسن العطار، وقد دافع عنه كثيراً أمام بعض من يهاجمه، وكان يناصره أيضاً خاله محمد الأنصاري.

** ** **

-2-

العهد السعيد

عندما وصل رفاعة ومن معه إلى مصر، كان في استقبالهم عدد من رجال الوالي الجديد وبعدما استقبلوهم رافقوهم لمقابلته، وذهبوا من فورهم إلى القلعة لمقابلة الوالي محمد سعيد باشا الذي استقبلهم وأغدق عليهم من الحفاوة وتطييب الخاطر، واختص رفاعة بالحفاوة قائلاً:

- شيخ رفاعة، أعتقد أن عزيز مصر محمد علي باشا، قد أنعم عليك برتبة أمير لاي أليس كذلك، إذاً أنت لقبك رفاعة بك الطهطاوي الآن.

ابتسم رفاعة وهو يرى البشرى في وجه محمد سعيد باشا:

- نعم يا ولي النعم فكل الفضل والرحمات لمولانا الباشا الكبير.

ابتسم محمد سعيد باشا وهو يقول:

- لقد أنعمنا عليك بمكافأة مالية، نظير مجهودك في إنشاء أول مدرسة ابتدائية في السودان.

رفع رفاعة يديه علامة للشكر، وهو يقول:

- ما قمت به هو واجبي يا ولي النعم، وأشكر لك رعايتك لرعاياك.

ابتسم سعيد باشا وهو يقول له:

- رفاعة بك، هل لك طلب أنفذه لك؟

ابتسم رفاعة في خجل وهو يقول:

- ليس طلباً ولكنه رجاء من سماحتكم يا ولي النعم، أريد أن تأذن لي بالذهاب إلى أهلي بطهطا،

فأنا جئت إليك ولم أُزل بعد عن كاهلي وعثاء السفر.
فابتسم سعيد باشا وهو يقول:
- أذنا لك يا شيخ رفاعة، اذهب لترى أهلك وتطمئن عليهم ولكن لا تغب عنا.
وما إن أمر له سعيد باشا بذلك، حتى أسرع إلى ركوب إحدى المراكب بالنيل ليتجه به صوب الجنوب حيث بلدته طهطا، ليطمئن على أهل بيته وليرى أحوال أهل طهطا، وجلس على ظهر المركب الذي يتجه به إلى صعيد مصر، وحاول جاهداً طوي تلك الصفحة المريرة من حياته، والتي وضع فيها محمد سعيد باشا كلمة النهاية، ورغم أنه علم أن أغلب اهتمامات سعيد باشا كانت عسكرية أكثر منها مدنية، وهذا قد يتعارض بعض الشيء مع ميول رفاعة وطموحه إلى تجديد ما انهدم من حياة البلاد الثقافية، وقد شعر بأن ما يصبو إليه قد يتأخر بعض الشيء، ولكنه أرجأ جميع أفكاره لما بعد عودته من طهطا واستقراره بالقاهرة.
وما أن لاحت في الأفق مشارف بلدته طهطا حتى أخذ يلوّح لمن يقفون في استقباله، واستقبل الأهالي رفاعة استقبالاً حاراً، وذبح خاله فراج الأنصاري عجلاً لإقامة وليمة احتفالاً بعودته سالماً، وكانت أسرته أكثر الناس ابتهاجاً بعودته، وقد تجمع في بيته كل أخواله وأبنائهم وعدد من كبراء البلدة وأعيانها، وأقاموا الولائم والذكر في طهطا وكان يوماً مشهوداً بها، وظل رفاعة في طهطا مدة قصيرة حتى جاءه خاله محمد الأنصاري ومعه البشرى قائلاً:
- أبشر يا شيخ رفاعة، لقد تم تعيينك بوظيفة مترجم في مجلس المحافظة.
فنظر إليه رفاعة وهو غير مصدق:
- وهل اهتم به سعيد باشا أخيراً؟
قال له خاله:
- نعم اهتم بك لتعينه على تسيير أمور الدولة، وقد عيّن رئيساً له «إبراهيم بك أدهم» ناظر ديوان المدارس السابق الذي أقاله عباس حلمي باشا.
فرح جداً رفاعة بهذا الخبر، خصوصاً بالعمل مع أستاذه إبراهيم بك أدهم، وفي اليوم التالي شدّ رحاله هو وأسرته الصغيرة متجهاً إلى القاهرة.
وما أن وصل إلى القاهرة حتى وجد إبراهيم بك أدهم قد صار محافظاً للعاصمة، وناظراً لديوان المدارس مرة أخرى، وفور وصوله ذهب لمقابلة إبراهيم بك أدهم الذي هنأه بتعيينه عضواً ومترجماً في مجلس المحافظة، وبدأ رفاعة العمل بنشاط من جديد، وحاول عن طريق إبراهيم بك أدهم التوسط عند الوالي لبعث مشروعه القديم، الذي كان يحلم به هو وإبراهيم بك أدهم في

عهد محمد علي باشا، بإنشاء مكاتب بالمراكز لنشر التعليم بين عامة أفراد الشعب، وقد كانا قد قدماه إلى محمد علي باشا فلم يسعفه الوقت ليوافق عليه، وجاءت ولاية عباس حلمي باشا فدمرت هذا الحلم أيضاً، فقرّرا أن يبعثوه من جديد، وطلب إبراهيم بك مقابلة الوالي سعيد باشا.
وبعد مقابلة سعيد باشا عرض إبراهيم بك عليه المشروع، وهو يقول:
- إن سمحتم لي يا ولي النعم فإني أقترح إنشاء مكاتب بالمراكز لنشر التعليم بين كافة أفراد الشعب المصري، كما أرشح الشيخ رفاعة بك الطهطاوي، ليكون ناظراً عاماً على إنشاء تلك المكاتب.
فكان سعيد باشا يسمع منه وهو ينظر إليه في هدوء، وإبراهيم بك يكمل:
- واقترح أيضا بعث قلم الترجمة القديم، وأن يلحق بالمشروع مترجمون لإتمام عمل رفاعة بك في ترجمة جغرافية ملطبرون وغيره من الكتب.
وعندما انتهى من كلامه نظر إليه سعيد باشا وهو يقول:
- إبراهيم بك ما فائدة تلك المشاريع في الوقت الحاضر، فهي سوف تكلفنا ونحن في حاجة إلى بناء الجيش، كما أنني أفكر فيما هو أعظم للمصريين من ذلك.
ثم مال إلى الأمام وهو يقول فيما يشبه الهمس:
- سأقول لك سراً وآمرك بعدم البوح به لأحد، إني أنوي تمصير الجيش وتعميم اللغة العربية لتكون هي اللغة الرسمية في مصر.
وكان هذا الخبر بمثابة المفاجأة التي ألجمت الرجل، فبين الفرحة والتعجب وقف إبراهيم بك لا يمكنه التعقيب غير بكلمة واحدة:
- إن هذا شيء عظيم يا ولي النعم.
وانصرف إلى عمله ولم يعلم رفاعة شيئاً عن هذا السر، وظن أن مسعاه قد خاب في إمكانية العمل في مشروعة في الوقت الحاضر وعاد حلمه إلى غمده، بعدما علم بعدم اهتمام سعيد باشا بفائدة هذه المشاريع في الوقت الحاضر، لأن اهتماماته العسكرية كانت منصبة على إعادة تنظيم الجيش، ولم يبح إبراهيم بك أدهم لرفاعة بما أسرّه له الوالي حتى عندما رأى خيبة أمل رفاعة في فرص تحقق ما يريد، ولكنه اجتهد لكي يحقق أكبر طموحاته، وإن كان في كثير من الأحيان يفتقد مساندة الشيخ حسن العطار له، وتذكر كيف كانت له دائماً الحظوة عند الولاة.

** **

بعد مرور سنة عُيِّن رفاعة وكيلاً -ناظراً ثانياً- للمدرسة الحربية «بالحوض المرصود بالصليبة» والتي كان ناظرها «سليمان باشا الفرنساوي» قائد الجيش، ولكن طموح رفاعة جعله يسعى بكل إصرار، حتى نجح بمساعدة إبراهيم بك أدهم وسليمان باشا الفرنساوي، في إنشاء مدرسة مستقلة بالقلعة كانت في أصل نشأتها مدرسة حربية «لأركان الحرب» تمشياً مع اهتمامات سعيد باشا.

لكن بفضل جهود ناظرها رفاعة تحولت تلك المدرسة عملياً، إلى صورة جديدة للمدارس المدنية، التي كان ينشئها ويديرها في عهد محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا، فجعل دراسة اللغة العربية بها إجبارية على جميع الطلبة، بعدما بدأت خطة محمد سعيد باشا في جعل اللغة العربية اللغة الرسمية لمصر، ثم جعل لهم رفاعة حرية اختيار إحدى اللغتين الشرقيتين التركية أو الفارسية وإحدى اللغات الأوروبية، الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية اختياري، وأنشأ بها فرقة خاصة للمحاسبة، وبعد ذلك أنشأ بها قسماً لقلم الترجمة ورشح أحد تلاميذه النجباء والذي يدعى «صالح مجدي» ليقوم على رئاسة هذا القسم، وبهذا اقتربت هذه المدرسة من شكل ومضمون مدرسة الألسن القديمة.

وظل رفاعة يعمل بنشاطه الجم في مدرسة أركان الحرب، وبذل كل همته للتمسك بهذه الفرصة، ولفت نشاطه وحسن إدارته لها الأعيان والمهتمين بالتعليم، مما جذب إليها أيضاً كل راغب في الالتحاق بها، وقد عيّن بها رفاعة كل من له ثقة من أهل العلم والمعرفة، المتدربين على تعليم العلوم وإفادتها والموظفين من ذوي الاجتهاد، وكان يتمنى أن يضم إليه علي مبارك، فعلم بأن محمد سعيد باشا فعل معه بكل أسف ما فعله سلفه عباس حلمي باشا معه، فقد أرسله سعيد باشا إلى الأستانة ليحارب هناك مع بعض الجنود في «حرب القرم» التي كانت ضد الروس، وكأن مصير النفي الذي صادف رفاعة وكل مجتهد، يقف حائلاً في وجه كل إنسان طموح يسعى إلى تنمية بلده، وقد جعله هذا في أشد الحزن والأسف على تغيّر أهواء الحكام، ولكنه صب كل همه في إدارة تلك المدرسة بهمة ونشاط مطعمين بالثقافة الأوروبية، حتى ظهرت بها نجابة تلاميذها واستفادتهم مما يتعلمون بها استفادة جيدة في وقت قصير.

واستمرت النجاحات لرفاعة على مدار سنة، فتولى إلى جانب نظارة هذه المدرسة، نظارة مدرستي «الهندسة الملكية والعمارة» وغيرهما، وكان هذا إيذاناً بعودة انتعاش رفاعة من جديد في تلك الفترة، ولهذا اجتهد بكل قوته لاستغلال هذه الفرصة في إنجاز أول مشروع لإحياء التراث العربي الإسلامي في مصر، ونجح بمساعدة بعض الأمراء في استصدار أمر من سعيد

باشا، بطبع مجموعة كتب عربية على نفقة الحكومة، واستطاع بتلك الخطوات التي خطاها الانفتاح على علوم الأزهر وغيرها.

ومرت السنوات مسرعة برفاعة، وحدث ما كان يخشاه من تقلب أمزجة الحكام، فلم يدم هذا النشاط طويلاً، فسرعان ما توقف عندما أصدر سعيد باشا أمراً بغلق بعض المدارس، وألغى مدرسة أركان الحرب التي كان قد مضى على إنشاء رفاعة لها خمس سنوات، وفصل كل من عينهم بالمعيَّة الخديوية، وكان من بين من فصل رفاعة، وتفاجأ بما حدث وكان يخشاه عندما اتخذ محمد سعيد باشا قراراته، ولم يكن يدرك أنه سيقضي على النشاط الكبير لرفاعة، ولكن علو الهمة التي كان يمتلكها رفاعة، لم تحطمها حالة تغير أمزجة الولاة حتى بعد فصله من الخدمة، وقيامهم بإلغاء الكثير من المدارس، وظل بعدها عاطلاً عن العمل لأكثر من عامين، وفي تلك الأثناء كان يلازم خاله محمد الأنصاري في مرضه الأخير، وعاود رفاعة الأثر النفسي بالمرارة لتعطيل همته مرة أخرى، بعدما ظل يبني آمالاً كبيرة للنهوض بخدمة وطنه.

وشملته الأحزان بعدما توفي خاله محمد الأنصاري، وحمل جثمان خاله إلى رقدته الأخيرة، وبكى رفاعة على فراقه كما لم يبكِ من قبل، فقد مرت عليه فترات حضانة خاله له وهو صبي، ورعايته ووقوفه بجواره في تعليمه ورحلة الحياة.

** ** **

الفصل العاشر

-1-

قاهرة الإسماعيليِّ

«إن لكل أمة صفحة من الحياة القومية، تحتوي على تاريخ الجهود التي بذلتها، والآلام التي عانتها في سبيل حريتها. تلك الصفحة أول ما تعنى كل أمة بتدوينها. ففيها ذكريات لجهاد الماضي، وعبور لجهاد الحاضر، وعظات لجهاد المستقبل، وفيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة، في أدوار الأمانة القومية، تلك الأمانة المقدسة: وديعة السلف للخلف، ووصية الآباء للأبناء.»

«عبد الرحمن الرافعي»

طوال المدة التي قضاها رفاعة بلا عمل، انتابه ألم نفسي شديد كاد أن يجعله يلازم الفراش لولا بقية من عزيمة قوية، فرغم توقفه عن العمل وتكاثر أحزانه إلا أنه عكف على ترجمة بعض الكتب وأنجز منها الكثير، وكان يزوره علي مبارك بعدما عاد من حرب القرم، وكان يشتكي له تعطيل همته هو الآخر، وكان الرجلان يستمدان السلوى والعزيمة من بعضهما البعض، وعندما علم بمرض محمد سعيد باشا كان يتمنى أن يذهب ليعوده، ويكلمه في أمر عودة فتح المدارس من جديد، فقد خشي رفاعة ضياع ما قام به من إنجازات، منذ عودته في تلك الفترة التي قضاها في ظل حكم سعيد باشا، الذي أعطاه صلاحيات صنع من خلالها أشياء كثيرة ذات قيمة، وعلى رغم من ذلك طلب الإذن لمقابلته ولكن طلبه قوبل بالرفض لاستعداد الوالي سعيد باشا للسفر إلى أوروبا للعلاج، وخشي رفاعة أن يكون قد فهم الوالي طلب زيارته على أنه استعطاف ليعيده إلى مناصبه.

ومرت الشهور وعندما عاد الوالي سعيد باشا من رحلة علاجه، لم يستمر به الحال كثيراً في الحكم فقد اختاره الله إلى جواره، ومن بعده تولى «إسماعيل ابن إبراهيم باشا» عرش مصر، وبدأ عهداً جديداً لمصر، فلقد كان إسماعيل باشا يريد أن يكون عهده محاولة لتحقيق طموحات جدّه محمد علي باشا، إلى جانب أحلام لتحديث مصر كانت تراوده أيام وجوده في باريس، فقد

حلم بأن يجعل من مصر قطعة من أوروبا، وظل هذا الحلم يراوده بشدة وفعل من أجل تحقيقه الكثير، وكان يقترب من هذا الحلم بعد وفاة شقيقه الأكبر أحمد رفعت باشا، وبعدما توفي محمد سعيد باشا انتقلت إليه السلطة دون معارضة، فقد صار هو أكبر أحفاد محمد علي باشا.

وبدأ حكمه بعمل تطوير على ملامح الحياة في مصر بشكل كبير، فمنذ أن تولى مقاليد الحكم ظلّ يسعى بكل الطرق للسير على خطى جده محمد علي باشا، وكان أول إنجاز له، ضمّ كل من رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك والكثير من النجباء أمثالهم إلى المعية الخديوية، ثم قام بتحويل مجلس المشورة الذي أسسه جده محمد علي باشا إلى مجلس شورى النواب وأتاح للشعب اختيار ممثليه، وقد أُفتتحت أولى جلساته بفرحة كبيرة من شعب مصر، وبعد ذلك بدأ إسماعيل باشا بتحويل الدواوين إلى نظارات ثم لوزارات، ليستحق لقب المؤسس الثاني لمصر الحديثة، بعد إنجازات جده محمد علي باشا.

وسعى إسماعيل باشا إلى التخلص تدريجياً من قيود معاهدة لندن، وحصل بفضل مساعيه على أمر من السلطان «عبد العزيز الأول» بإصدار فرمان بمنحه لقب «الخديوي» مقابل زيادة في الجزية، وتم له ما أراد بموجب هذا الفرمان فقام بتعديل طريقة نقل الحكم، لتصبح بالوراثة لأكبر أبناء الخديوي سناً، وقام بتعيين رفاعة في «قومسيون» ديوان المدارس وعلي مبارك ناظراً لها ليمكنه النظر في أمور المدارس الجديدة، وعادت إلى رفاعة وعلي مبارك حيويتهما في العمل من جديد، وجمع الخديوي إسماعيل في عهده، قطبي الثقافة والتعليم والإنشاء والتعمير، عندما صرح في إحدى اجتماعاته قائلاً:

- لقد أمرنا بضم كل من علي مبارك باشا ورفاعة بك الطهطاوي تحت نظارة ديوان المدارس والتي يَرأسها علي مبارك، ويقوم رفاعة بك الطهطاوي برئاسة المكاتب الأهلية وتصريف أمورها بجانب الإشراف على تعليم اللغة العربية، واللغات الأجنبية والترجمة.

وكانت الغبطة والفرحة لكل من علي مبارك ورفاعة الطهطاوي، بالعمل معاً في مكان واحد، في تلك الأثناء، وسعى الخديوي إسماعيل للحصول على فرمان شامل يمنحه استقلال الحكم بمصر، وحصل الخديوي إسماعيل على هذا الفرمان الشامل، وعندها عهد إلى علي مبارك مهمة البدء في العمل على تطوير الاقتصاد والإدارة والعمران في دولته، والتي قرّر أن يجعلها قطعة من دول أوروبا.

** **

عادت لرفاعة حيويته وازدهرت أنشطته، وفُتحت أمامه مرة أخرى أبواب الأمل والعمل في مجالات التعليم وميدان الترجمة، وألقى رفاعة بكل ثقله كما لم يحدث له من قبل في التأليف والترجمة والاهتمام بالتعليم، واقترب مستوى نشاطه إلى ما كان عليه في عصر محمد علي باشا، وكانت الأمور تسير معه بكل تفاؤل في ظل حكم الخديوي إسماعيل، فبعد عودة دور ديوان المدارس وبالقرار الذي ضم رفاعة وعلي مبارك ليعملا على النهوض بالتعليم، وبإشرافه الكامل على المدارس وحرية اختيار المدرسين والعاملين بها، قام بتوجيههم لكيفية التعامل بطرق حديثة في التدريس والإدارة، كالتي تعلمها في باريس وقد اختار لهم أيضاً الكتب التي ستدرّس بتلك المدارس، إلى جانب تكليفه من قبل علي مبارك برئاسة العديد من لجان الاختبار للمتقدمين للمدارس، ليكتمل له الدور الذي جعله كبندول الساعة لا يهدأ على حال، وعندما أراد الخديوي إسماعيل إصلاح القضاء، عهد إلى رفاعة بإعادة إنشاء قلم الترجمة مرة أخرى لترجمة القوانين الحديثة، وعين رفاعة ناظراً له بجانب مهامه الأخرى، وقام رفاعة باستدعاء تلاميذه القدامى خريجي مدرسة الألسن، الذين كانوا الدفعة الأولى بمدرسة الألسن في عهد محمد علي باشا، وعينهم رفاعة في قلم الترجمة لكي يعاونوه في ترجمة تلك القوانين، وأنجزوا في وقت قصير ترجمة مجلدات القانون الفرنسي المسمى «كود نابليون» كما ترجموا «الدستور العثماني» والجريدة العسكرية وحسابات البعثة المصرية بباريس، وسيراً على نهج معلمهم عرفاناً بالجميل عندما ترجم رفاعة «روزنامة التقويم» التي ألفها مسيو جومار لتقويم مصر والشام، قاموا هم بترجمة جزء من كتاب رفاعة الطهطاوي «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل» وهذا الجزء كان خاص بتاريخ مصر القديمة، فقاموا بترجمته إلى اللغة التركية، وقد ترجم رفاعة الطهطاوي أيضاً القانون المدني وقانون التجارة، لإلمامه بهما بعد مطالعاته من خلال ترجمة القوانين الفرنسية، ولعلمه بأحكام الشريعة الإسلامية والمصطلحات الفقهية التي درسها في الأزهر، قام بمطابقة مثيلاتها في القانون الفرنسي ليناسب البلاد المسلمة كمصر، وهو الجهد الرائد له والغير مسبوق في تاريخ الترجمات إلى اللغة العربية، والذي لم يسبقه إليه أحد قبله.

وعندما قرّر ديوان المدارس برئاسة ناظره علي مبارك بإصدار مجلة فكرية وثقافية وأدبية، لتكون الأولى من نوعها في مصر، والتي أطلق عليها اسم روضة المدارس، وترصد الأحوال السياسية، والأفعال الرئاسية والإدارية في وقتها، قام الديوان بإسناد رئاسة تحريرها إلى رفاعة الذي جعلها لكل مهتم بالعلوم والأدب والفن إلى ما يشبه المرجع، ولم يتكبر رفاعة عن العمل

كمرؤوس تحت إدارة علي مبارك الذي يصغره بأكثر من عشرين سنه أو أن يرفض عمله تحت رئاسته، وإنما جعل اهتمامه منصباً على ما سوف يقدمه لوطنه الحبيب، فقام رفاعة بالعمل على إصدار المجلة وقسمها إلى أقسام، يرأس كل قسم فيها أكبر المتخصصين بمصر في ذلك الوقت، واجتمع بهم وأثناء مناقشتهم قال لهم:

- ما رأيكم يا حضرات سوف أكلف صالح مجدي برئاسة قسم الترجمة فهو متخصص في ترجمة العلوم الهندسية وغيرها، وسأكلف محمود الفلكي بقسم العروض الفلكية فهو من أبرز علماء الفلك، والقسم الأدبي سيتولاه الأديب الشاعر عبد الله فكري، كما أقترح تولية المشرع القانوني محمد قدري لقسم الأمور القانونية، أما قسم العلوم الكيمائية فليس له إلا الكيميائي محمد ندا، وسيقوم الشيخ حمزة فتح الله بالكتابة في الأمور الفقهية.

ووافق الجميع على ترشيحات رفاعة حيث وضع لكل مهمة من هو أحق بها، وبدأ العمل على قدم وساق بالمجلة حتى إنهم بدأوا في نشر ملاحق لأعدادها، لتنشر فيها فصول متتابعة تكون كالكتيب العظيم في موضوعاته، وظل رفاعة رئيساً لتحرير مجلة روضة المدارس على مدار أربع سنوات، كانت من أزهى سنوات التألق لرفاعة.

وظل الخديوي إسماعيل طوال تلك السنوات يسعى لوضع تنظيم إداري للبلاد، فأنشأ مجالس محلية مُنتخبة للمعاونة في إدارة الدولة، ثم بدأ تحقيق حلمه في تخطيط وبناء القاهرة من جديد، فأرسل إلى علي مبارك ليكلفه بالقيام بتحقيق ذلك الحلم، ويساعده في تحقيق هدفه، وعندما حضر علي مبارك ابتدره الخديوي إسماعيل قائلاً:

- علي بك مبارك.. أريد أن أعيد تخطيط القاهرة، لتكون على الطراز الأوروبي.

نظر إليه علي مبارك بدهشة قائلاً:

- ولكن يا ولي النعم هذا الأمر سيكلف الدولة الكثير.

صاح الخديوي إسماعيل وهو يقول:

- لا تهم التكاليف.. المهم أن أُحقق حلمي، بأن أجعل من مصر قطعة من أوروبا.

ابتسم علي مبارك وهو يقول:

- أتذكر أن ذلك كان حلمك عندما كنت في باريس.

يرفع الخديوي إسماعيل رأسه إلى أعلى وهو يتمتم:

- ياه يا علي.. هل تذكر تلك الشوارع والحدائق والمباني، حتى الأوبرا كانت في غاية الروعة، كلها أشياء عظيمة، فلمَ لا تكون عندنا مثلها في مصر؟

ثم استطرد:
- علي بك عليك أن نضع لائحة، تحدد فيها ما يتطلبه ذلك المشروع الحلم.
يخفض علي مبارك عينيه إلى أسفل وهو يرفع يديه قائلاً:
- كما تأمر يا ولي النعم.
وانطلق علي مبارك بهمة ونشاط لتنفيذ تلك المهمة، وقد طلب الاستعانة بمهندس من فرنسا اسمه «هوسمن» والذي اشترط هو الآخر وجود علي مبارك معه، وتم وضع التخطيط للقاهرة، وقد جعلوا فيها ميادين منظمة، وشوارع ممهدة وحدائق شاسعة، وكانت همة علي مبارك عالية، فلم يغمض له جفن حتى أتم ذلك العمل العظيم وأنجزه ببراعة، ومرت الأيام بمصر وقد قام علي مبارك بإنشاء القصور الفخمة، وأنشأ أول دار للأوبرا في مصر، وصارت مصر جزءاً لا يتجزأ من الطراز الأوروبي، وفي تلك الأثناء كان الخديوي إسماعيل يسابق الزمن، بالتوسع في ميزانية التعليم بشكل كبير، وقد سيّر الجيش للسعي للوصول إلى منابع النيل لتأمينها، واستمر الخديوي إسماعيل في سعيه لتأمين منابع النيل لحفظ أمن مصر واستقرارها، لعلمه بمدى أهمية النيل لشعب مصر الذي يعيش على ضفافه من أيام القدماء المصريين، وجعل الوادي كله دولة واحدة، وكان مستمراً في الوقت ذاته في استكمال حفر قناة السويس ولكن بشروط جديدة وعندما مرت الأيام وانتهى حفرها، أمر الخديوي إسماعيل بإقامة احتفالات ضخمة لها، ودعا إلى الحفل أمراء ورؤساء وملوك الدول، وكان الاحتفال به من الفخامة والضخامة والبذخ، ما جعله ملفت لأنظار العالم كله، ولقد أثار ذلك حفيظة كل مصري غيور على بلده، حتى رفاعة كان يتأسف وهو يتابع ما يجري حوله عن بعد، فلم يستطع المشاركة ورؤية ما يحدث لمرض زوجته الذي جعله في قمة الحزن عليها.

** ** **

-2-

ستائر الأيام

كان لمرض كريمة زوجة رفاعة أثر سيئ على نفسه وقد لزمها طيلة فترة المرض، وكانت كلما اشتد عليها المرض تهذي باسمه، فيجلس بجوارها يدعو لها وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ومرت عليه الأيام ثقيلة على هذا المنوال، حتى فاضت روحها إلى بارئها، ولم يتحمل الصدمة وسقط مغشياً عليه وعندما أفاق جلس لا يقوى على استقبال المشيعين، وعندما تجهّز جثمانها

لرقدته الأخيرة، كان يسير حاملاً النعش وهو مخدر الحواس، حتى أنه لم يستطع الصلاة عليها، وصلى عليها ابنه الأكبر «بدوي فتحي» وحُمل النعش إلى مثواه الأخير، وجلس رفاعة يذرف الدموع أنهاراً عليها، حتى قارب الليل على الدخول فقام أبناؤه بمساعدته على النهوض، ورافقه تلميذه صالح مجدي فكان يأخذ بيده ليستطيع السير، وعندما عاد إلى المنزل ظل حبيس غرفتها عدة أيام لا يتناول من الزاد إلا قليلاً، وساءت حالته حتى أتوا له بطبيب، ولازم رفاعة الفراش أياماً لا تبارحه دموعه، وقد كانت ذاكرته تعيد عليه لحظات وفاة أحبته منذ وفاة والده ووالدته، ومن بعدهما شيخه حسن العطار ثم وفاة خاله محمد الأنصاري والد زوجته التي أخذ ينعيها بينه وبين نفسه مردداً:

- هل صارت كريمة ذكرى لا أستطيع رؤيتها إلا في أحلام يقظتي ومنامي، هل تركتني يا قرة العين وحبيبة الفؤاد ورفيقة الكيان، ألا أستطيع بعد الآن الحديث إليكِ مرة أخرى يا للفراق وعذاب الروح، لقد كنت أتمنى الفراق قبلك، حتى لا يعتصرني الألم على بعدك، ولكن لا.. خير لي أن أذوق عذاب الفراق ولوعته، على أن أحمّلك ويلاته، فأنتِ روحي التي فارقتني بفراقك، وكم كنت أخشى عليكِ أن أفارقكِ فتشعرين حينها بالعذاب، فوالله لن تكون روحي في راحة إن تركتك تتعذبين بألم الفراق، كما أنها لن تهنأ بعد اليوم لفراقك.

وكانت الحياة بمصر تمر بحالة من عدم الاستقرار المادي، بعد الانتهاء من الاحتفال الكبير الذي أقامه الخديوي إسماعيل، ورغم ذلك أكمل الخديوي إسماعيل تشييد القصور وتفعيل الدور الحضاري الذي يتناسب مع شكل اهتماماته العصرية لمصر، ورحب باقتراح إنشاء مدرسة لتعليم الفتيات، فقرّر إنشاء أول مدرسة لتعليم الفتيات في مصر وأوكل الأمر إلى علي مبارك، وعندما استدعاه نظر إليه وهو يقول:

- علي بك مبارك.. أريد منك العمل على إنشاء مدرسة لتعليم الفتيات.

نظر إليه علي مبارك بدهشة قائلاً:

- ولكن يا ولي النعم ميزانية الدولة، أصبحت لا تتحمل أعباء أكثر بعد الاحتفال الكبير الذي أقمته.

صاح به الخديوي إسماعيل وهو يقول:

- تكاليف.. تكاليف لا تهم التكاليف.. كلها أمور ستنتهي بعد مرور الأزمة، ولكن ما سيبقى هو ما حققناه من إنجاز عظيم سيذكره لنا التاريخ.

ثم أكمل حديثه:

- علي بك.. عليك أن تضع لائحة، لإنشاء تلك المدرسة، أريد أن يذكر التاريخ أن عصر إسماعيل هو أزهى عصور مصر.

رفع علي مبارك يديه علامة للشكر قائلاً:

- لك الأمر والطاعة يا ولي النعم.

ومرت الأيام مسرعة وعمل خلالها علي مبارك بكل همة لإنشاء تلك المدرسة، وأطلق عليها اسم «مدرسة السنية» والتي لم يسعد رفاعة بافتتاحها، فلقد كانت هذه السنة آخر عهد رفاعة بالإنجازات العظيمة في مصر، فلقد كان عمره تعدى السبعين، وعرف الوهن طريقه إلى جسده الذي أضناه النضال العلمي غير العادي لأكثر من نصف قرن كامل، فمرض بالنزلة المثانية ورغم أنه قد عُولج منها أكثر من مرة غير أنها في المرة الأخيرة، لازم على أثرها الفراش، وأرسلوا إليه لكي يحضر افتتاح المدرسة السنية للفتيات، ولكنه كان في شدة المرض فاعتذر لأول مرة في حياته.

** **

كان علي فهمي ابن رفاعة الأصغر وصالح مجدي تلميذ رفاعة النجيب، يجلسان بجوار فراش رفاعة ولا يبرحانه طوال فترة مرضه، وظل صالح مجدي لا يبارحه كما ظل يلازمه في سنواته الأخيرة ويرافقه في كل مهماته، هو وعلي فهمي، ورفض التلميذ ترك شيخه الذي يرقد على فراش المرض لأي سبب، واستأذن منه أن يستغل تلك الفترة في أن يبدأ في كتابة سيرته ومسيرته لتكون مرجعاً للأجيال القادمة، وبعد محاولات وافق رفاعة الطهطاوي، فأحضر صالح مجدي معه مجموعة أوراق ليكتب فيها، وعندما رآه علي فهمي قال له:

- ماذا ستكتب يا صالح أفندي.؟

فرد عليه صالح مجدي:

- أكتب سيرة ميسرة وخلاصة فكر شيخي الجليل رفاعة بك الطهطاوي، التي تتميز بشمول غطى على احتياجات عصر النهضة العربية في هذا الزمن تقريباً، وأوضح آثاره الفكرية المبدعة، فبالرغم من وجود معاصرين له مثل الشيخ جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده والشيخ عبد الرحمن الكواكبي لكنه تفوق عليهم بمداركه.

فقال له علي فهمي:

- ولكنه لم يحصر جهوده في نطاق الفكر، الذي تميزت به حركة المثقفين وإنما كان مثقفاً فهم

الثقافة بمعناها العام.
فنظر له صالح مجدي قائلاً:
- أعلم ذلك فقد قدم لشعبه وأمته زاداً ثقافياً غطى احتياجات هذه الأمة تقريباً، فقد كان عنده فكر وثقافة متنوعة إلى جانب فكره للفلاح البسيط في الزراعة، والثروة الحيوانية والسمكية، وفكره لثقافة الطبيب والمهندس والمعماري، إلى جانب ثقافة العسكريين والمدنيين على حد سواء، وزاداً للبسطاء وللمتفلسفين وللحكام أيضاً.
تنهد علي فهمي وهو يقول:
- عفى الله عنك يا أبي.. لقد نجحت في مختلف المسائل الأدبية والفلسفية، وجمعت بين اللغات والعلوم، ودمجت بين فصاحة العربية، وسهولة العامية في الترجمة.
نظر له صالح مجدي قائلاً:
- لا تنس إنه نجح في إنشاء المكاتب الأهلية التي أفرزت الطلاب، وسهَّل عملية تدوين تواريخ البلاد خصوصاً مصر والشام، وهو الذي دوّن حكايات ونوادر من غرائب الآداب والبلاغة الإفرنجية، في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز.
فتنهد على فهمي وهو ينظر إلى والده الغارق في النوم:
- لقد كان هذا دأبه، فهو منْ ثبَّت أول لوح في سفينة العلم، وصنع بقلمه ذلك الفُلك المحمّل بألوان العلوم، وأرساه بطيب خاطر لخدمة أهل بلده بل وللعالم بأثره، واستجدى الحيل للحصول على وسائط تكون مسهلة للمعلمين، يستعينون بها على الإيجاز لشرح القراءة والكتابة والحساب للطلاب، ووضع لهم طرق تعليم هذه الأشياء في أيسر طريقة.
ثم ابتسم وهو ينظر إلى صالح مجدي قائلاً:
- هل تذكر ما قدم به كتاب تخليص الأبريز؟
ابتسم صالح مجدي وهو يقول:
- نعم أذكره جيداً فقد قال في هذا الكتاب: (من المعلوم أن نفس القارئ لهذه الرحلة تتطلع إلى معرفة نتيجة هذا السفر، الذي صرف عليه ولي النعمة مصاريف لم تسبق لأحد من الملوك، ولا سمع بها في التواريخ عند سائر الأمم، وإنما تسطيرها في تاريخ دولة الخديوي، مما يدل على أن ضرته العلوية، صاحبة الهمة العلية، قد تبصرت في عواقب الأمور، وأصابت المرمى في جميع ما شرعت فيه مما يبقى به الذكر على ممر الدهور، ولا شك أن ذلك تقصر عنه همة قيصر، وتكلّ عن نيل ماله قوة إسكندر الأكبر ولا يمكن لمثل نابليون أن يفوق فيه نباله، ولا

لمثل «أفريدريقوس» أن يوجه إليه باله، أو يميل إليه ماله، فكيف وإرسال ولي النعمة للأفندية إلى باريس قد نجح غاية النجاح وأثمر، حيث أن جلّهم قد اكتسب رضاء صاحب السعادة، وسارع في المطلوب، وعن ساعد الجد والاجتهاد شمر، فقد أرضع -حفظه الله تعالى- في تلك الديار بارتداء العلوم أطفالاً، حتى صاروا بكمال المعارف رجالاً، بل منهم من وصل إلى رتبة أساطين الإفرنج، فهم ما بين مدير للأمور الملكية، حائز كمال الرتبة في السياسيات المدنية، وما بين متمكن في معرفة إدارة الأمور العسكرية، راق فيها إلى درجة علية، وما بين رُباني بسائر الأمور البحرية، أو خبير بالطب أو بالكيمياء الصحيحة المرضية وبصير بالطبيعيات، وماهر في علم الزراعة والنباتات، ومنهم فائق الأقران في الفنون والصنائع..).

ربت علي فهمي على كتف صالح مجدي وهو يقول:

- أنت رجل وفيٌّ يا سيد صالح وصاحب عزم وإرادة.

نظر إليه صالح مجدي وذرفت عيناه، وهو يقول:

- الوفاء لشيخي رفاعة بك الطهطاوي أقل شيء، أما العزم فلا أحد يدركه كما أدركه والدك «أبو العزم» كما لقّبه شيخ طريقة الأشراف الشيخ «أبو الأنوار السادات».

ابتسم على فهمي وهو يقول:

- نعم أتذكر عندما أطلق عليه الشيخ أبو الأنوار السادات لقب أبو العزم عندما سمع ورأى فيه من شدة عزمه في تحصيل العلوم، وقوة بأسه في عمله لخدمة وطنه، حتى عندما مرض طلب منه علي بك مبارك أن يضع لائحة لمدرسة لتعليم الفتيات، فقام بدلاً من ذلك بتأليف كتاب أسماه المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، وتحدث فيه كثيراً عن خلود الإنسان بآثاره النافعة، وذكراه الطيبة وسيرته الحسنة، وذريته الصالحة.

تنهد صالح مجدي قائلاً:

- كأنه أراد ألا يضيع وقت من عمره دون إضافة غرس جديد في فكر الأمة، فغرس نبتاً في تربة هذا الوطن وعقل هذه الأمة ووجدانها، ما يضمن الخلود لها على مرّ التاريخ، ليمتد ذكر ما قام به قروناً وأكثر من الزمن، وليخلّد التاريخ هذا العلاّمة الشهير بالطموح الوفي لتراثه، الذي سكب في النيل مخزون معرفته واطلاعه العلمي والمعرفي، وفتح آفاقاً جديدة للحاضر والمستقبل، وقد سجل أعظم الانتصارات الثقافية والمعرفية، ليبقى أثره للأجيال القادمة.

** ** **

الفصل الحادي عشر

-1-

بداية خلود

سأضرب في بطون الأرض ضرباً
وأركب في العلا غرر الليالي
فإما والثرى وأصيب عذراً
وإما والثُريا والمعالي

في ذلك الوقت قام علي مبارك بافتتاح المدرسة السنية باعتباره ناظراً لديوان المدارس، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتحقق فيها نوع من النهضة التعليمية في مصر ولم يحضرها رفاعة الطهطاوي، فلقد كان في نفس الوقت الذي افتتحت فيه المدرسة في مرضه الأخير، ولم تمض أيام حتى صعدت روح رفاعة الطهطاوي تحلّق إلى بارئها، مخلفاً وراءه كنزاً من الكتب والترجمات تخلّد ذكره على مر التاريخ، ففي يوم (الثلاثاء السابع والعشرين من شهر مايو سنة 1873م غرة ربيع الثاني سنة 1290ه) صعدت روحه إلى بارئها، وقد رسمت في صعودها من الأرض إلى السماء، رمزاً للخلود لن يمحوه الزمن، وفي اليوم التالي تجهز جثمانه، كي يرقد في أحضان تراب الوطن الذي قدم له رفاعة معنى لفكر جديد للتعليم وللثقافة ودعوة للاستنارة بعلوم الشعوب، ووقف صالح مجدي يتمتم بين دموعه:

- آه يا شيخي لقد صعدت روحك وبقي أثرك في العقول وما كتبت وقدمت ليتوارثه الأجيال على مرّ الحياة، نعم صعدت الروح وقد يفنى الجسمان، ولكن الفكرة لن تمحى وأنت يا شيخ رفاعة كنت الفكرة.

وتم تجهيز الجثمان الذي قاتل وتلقى طعنات العراقيل التي كانت تقويه، تجهز الجثمان لرقدته الأخيرة الأبدية تاركاً سيرة عطرة، وتجهزت مصر كلها تسعى على قدميها في مشهد مهيب وفاءً لهذا العلم السامق، الذي أعطى وطنه الحب بكل سخاء.

وحُمل الجثمان في نعشه على الأعناق، من حديقة منزله بشارع «مهمشة بحي الشرابية» بالقاهرة، ومن حوله كل الذين تتلمذوا على يديه وطالعوا كتبه وتعلموا منه، وكل من سمعوا به

وعرفوا طرفاً من فضله العظيم، وعندما اقترب المشهد من قلب العاصمة، انضم إلى موكب جنازته عدد من كبار المسؤولين وأبناء المدارس الملكية والمكاتب الأهلية، وعند اقتراب الموكب الجنائزي من جامع الأزهر الشريف، كانت جماهير طلبة الأزهر وعلماءه في انتظاره يتقدمهم شيخ الأزهر، وعند باب الجامع كانت جموع أخرى غفيرة، تتأهبوا للسير في موكب الوداع لأبرِّ أبناء مصر والأزهر الشريف، وليحملوا جثمان رائد التنوير رفاعة الطهطاوي وقد تصايح بعض أبناء طريقة الأشراف قائلين:

- إلى رحاب الله يا أبو العزم يا طهطاوي.

وما إن دنا النعش من الباب حتى تلقته بعض الأيادي وأصحابها يصيحون بالدعاء، وعندما وضع جثمانه إلى القبلة وضعوه في المكان الذي يوضع فيه كبار العلماء الأفاضل، وتُليت مرثيته ونسبه بصوت شيخ الأزهر.

وعندما انتهى شيخ الأزهر وقف الجميع صفوفاً، حتى تعدوا حدود جامع الأزهر، وصلى عليه شيخ الأزهر بنفسه ومن خلفه جماهير غفيرة ومن خلف هذا الجمهور، كان قلب مصر والعروبة والإسلام يدعوا له بالمغفرة.

وبعد الصلاة على الجثمان انتظم موكب الجنازة المهيب خارجاً من باب الأزهر الشريف، وقد اختلط فيه كبار العلماء مع رجال الدولة وأعيان التجار مع الأطباء، إلى جانب جماهير الطلبة والمدرسين وعامة الشعب المصري، وكان يحضر الموكب كثير من رعايا الدول الأخرى، وأهل المهن والحرف المختلفة، وسار هذا الموكب المهيب يحفّ بنعش رفاعة الطهطاوي وجثمانه، حتى بلغوا به مدافن عائلته بقرافة «باب الوزير» في منطقة «بستان العلماء بحي الدرب الأحمر» قرب جامع الأزهر حيث واروا جثمانه التراب ووقفوا على الضريح بفؤاد حزين...

وحزن الجميع على غياب جثمان وروح رفاعة الطهطاوي الذي تنوعت مراحل حياته، في كل ما قام به من إنجازات خدمت بلده وأهله وكل شعب المحروسة، وتنهّد علي مبارك وهو يغالب حزنه وأخذ يحدّث صديقيه حماد عبد العاطي وعلي إبراهيم بقوله:

- إن موقف القوم في هذا اليوم ليرسم صورة مشرفة لتعلن للكون عن أهمية مسيرة ذلك الرائد الفذ، الذي شهد له القاصي والداني بالنبوغ، وأشاد به الغريب والقريب لتفانيه وإخلاصه في عمله، وقد ظلّ طوال سنوات عمره ينهل من منبع الحياة ويفيض به على أبناء وطنه، فهو من أرشد أمته إلى العصر الحديث، وأخرج شعبه من ظلمات البدائية إلى نور العلم والتطور.

** ** **

-2-

مداد من ورق

«منْ يؤلف ويكُتبْ.. لا يموت»

في اليوم التالي من وفاته نعته مجلة روضة المدارس بكامل صفحاتها، وكما كانت الأوراق هي سلواه في كل حياته، فلقد تناولت روضة المدارس في هذا العدد كل ما يمكن أن يلخص فكر هذا الفقيد، فنشرت وصف رفاعة للكاتب الذي لا يوجد شيء يعينه على عمله مثل الورق، فقد قال فيه رفاعة الطهطاوي مثله الجميل ذا الدلالة الكبرى والحاسمة على هذه الحقيقة التي أقرها بقوله:

(إن مثل الكاتب كالدولاب، إذا تعطل تكسر، وكالمفتاح الحديد، إذا ترك ارتكبه الصدأ).

ونشرت ما كان يردده من قول ابن قتيبة وتعليقه عليه:

(من أراد أن يكون عالماً فليلزم فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم)

(هذا من أحسن ما نتخذه مذهباً، وإلى محاسنه نميل ونذهب).

وقد نشر تلميذه وكاتب سيرته في حياته صالح مجدي ملخصاً له في فقرة واحدة:

(إنه أول مترجم نشأ بالديار المصرية من أبنائها، وأول منشئ لصحيفة أخبار في الديار المصرية، وأول من وقف على التواريخ القديمة والحديثة والأنساب بلا خرافة أو أساطير، حتى لم يكد يلحقه فيه غيره، وأول من نجح في تعليم اللغات الأجنبية لأبناء الوطن)

وقد أوكل علي مبارك رئاسة المجلة إلى ابنه علي فهمي رفاعة ليصبح رئيس تحرير مجلة روضة المدارس خلفاً لأبيه ولكي يواصل نهج والده، وقد استمر علي فهمي رفاعة بنشر فصول من كتاب والده الأخير (نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز) والذي كان يحتاج إلى مراجعة، وقد قام بمراجعته ابنه علي فهمي رفاعة الذي ورث عن أبيه حب العلم والثقافة، وكان أبوه يسند إليه في بعض الأحيان مهمة مراجعة كتبه مراجعة أولية، وقد أوصاه علي مبارك بقوله:

- اعلم يا علي فهمي إن كانت نهاية الجسد لرائد التنوير رفاعة بك الطهطاوي قد حدثت، فلابد لروحه ألا تفنَ، كما لم تنتهِ سيرته مادامت كتبه تتناولها الأجيال جيلاً بعد جيل، فمن ألّف الكتب لم يمت، وسيظل خالداً بما سطّرته يداه.

وكان أشد الناس حزناً على رفاعة الطهطاوي علي مبارك وتلميذه صالح مجدي الذين لازما بيته أياماً، وكان مجدي يكتب باقي سيرته ودموعه تسابق حروف كلماته، فقد أصرّ على تكملة

سيرة شيخه ومعلّمه وصاحب الفضل عليه، هذا الجبل الراسخ رفاعة رافع الطهطاوي فأخذ يتمتم وهو يكتب:

- إن خلود الإنسان يبقى بآثاره النافعة وذكراه الطيبة، وبسيرته الحسنة وذريته الصالحة، فقد كان رفاعة بك الطهطاوي المرشد الأمين الذي غرس، على امتداد أكثر من نصف قرن، في تربة هذا الوطن وعقل هذه الأمة ووجدانها، ما يضمن الخلود لهذه الأمة، التي سيخلد يوماً ما هذا الابن البار بها الوفي لتراثها، الفاتح بكل ما تعلمه؛ أبواب حاضرها ومصارع مستقبلها، إذ لم يبخل بما تعلمه على بلده، التي قال فيها إن حبها من الإيمان.

يتذكر كيف كان شيخه في حياته الاجتماعية ليناً ميسراً، في تسيير كل جوانب حياته، فعندما شغل بالعلم عن الحياة نفض يده من رعاية أملاكه، وأبعد كل شواغلها عن عقله وفكره، وفوّض أمرها لولده الكبير بدوي فتحي رفاعة وكتب إليه توكيلاً وتفويضاً له بذلك قائلاً له:

(لقد استصوبنا تفويض إدارة المنزل بطهطا إليك، إلى جانب كافة ما تجريه من صدقات وإنعامات، وتحسينات منزلية، ومباشرة للعمل والأشغال فأنت مفوض فيه، إلى جانب معلومية الوارد والمنصرف، فأنت مثلي في كل ذلك، لكي تسير في هذا الأمر سواء بسواء في الأوامر والنواهي، وألزمك بالمحافظة على هذا التفويض).

وكان هذا تعبيراً عملياً من شيخه عن موقف إيمانه بالاستقلالية في تربية أولاده، وتنمية ما لديهم من قدرات على تحمل المسؤولية.

يتذكر عندما هاجمه البعض متهماً إياه بالدعوة إلى خروج المرأة للتعليم، والمطالبة بحقوقها التي يهدرها الرجال، وهو الذي دعم فكرة إنشاء مدرسة لتعليم الفتيات، يومها سانده الكثير من أصحاب الفكر فقد كان إيمان شيخه بدور المرأة عظيم، وقد تجلى ذلك من خلال ما قام به تجاه زوجته.

يتذكر عندما قام بتطبيق هذا الفكر في حياته الخاصة، فلم يكن يميل إلى تعدد الزوجات، ودعا إلى تقييده بضوابط الشرع، وقد هاجمه البعض أيضاً ولكن سلوكه ألزمهم الصمت عندما وجدوه يطبق هذا الرأي عملياً، فلقد كتب بخط يده عند زواجه من ابنة خاله وثيقة نادرة المثال في عصره.

تنهّد صالح مجدي وهو يحاول كتابة هذا الأثر لشيخه وأخذ يتمتم:

- نِعم الرجل أنت لقد ألزمت نفسك بعدم تعدد الزوجات، بل وألزمت نفسك بعدم الطلاق، طالما كانت زوجتك على العهد باقية، وللأمانة الزوجية مؤدية.

يتذكر تلك الوثيقة التي كانت ملمحاً هاماً من ملامح خلق شيخه، فهو كان يعيش في عصر لم يكن الرقيق فيه حُرم بعد، وكان في بيته عبيد وإماء، ولم يبح لنفسه التمتع والاستمتاع بمن يشاء منهن، فقد أخلص في وحدانية الحب لزوجته الواحدة، بل أعتق وحرّر الكثير من الأرقاء وكان يداوم على رعاية أحوالهم المادية وشؤونهم المعاشية، حتى أوقف عليهم بعض أراضيه.

يتذكر عندما ماتت زوجة شيخه رفاعة يومها نصحه البعض بالزواج، ليجد من يقيم على خدمته، وأخبروه بأن الوثيقة التي كان قد كتبها لزوجته الراحلة، قد انفكت قيودها بالنسبة له، وبأن الشرع قد حلل للمؤمنين الزواج لتسير بهم الحياة، كان يرفض ولكنه من كثرة الإلحاح ولتعذر من يقوم على خدمته، اختار يومها إحدى النساء الفضيلات، وتزوّج منها وكانت تعيش معه في نفس المنزل، الذي ضمه وزوجته قرة عينه كريمة، العشق الذي جال في كيانه واحتوى كل عالمه، وكان يحاول جاهداً أن يعامل زوجته الجديدة بنفس المعاملة التي كان يعامل بها زوجته الأولى.

يتذكر عندما أخبرته زوجته بأن زوجة شيخه الجديدة أخبرتها، (أنه كان يقرأ أو يكتب، وهو على حاشية على الأرض، وكانت هي تجلس على السرير بجواره)

يغمض صالح مجدي عينيه وقد ترك ما بيده من أقلام وأوراق، وأخذ يتذكر طيف شيخه رفاعة الطهطاوي فتراءى له بعظم الهامة، رغم قصر قامته، وجبينه الواسع وبشرته السمراء، فقد كان متناسب الأعضاء في اليسار واليمين، ولديه لثغة في حرف الراء، ويتذكر أهم صفاته عندما كان يُطلب منه شيئاً فيؤثر على نفسه هذا الشيء ويلبيه لطالبه، وهذا ما جعل الجميع يتفانون في معاونته على إنجاز أغلب مهماته، حتى جنت مصر ثمار تلك الإنجازات وصارت تفخر به.

** ** **

حِليَة الزَّمَنِ

«ختام»

تلـك آثارُنـا تـدلُّ علينـا
فانظروا بَعْدنا إلى الآثارِ

«هذا ما جاء في ترجمة أحوال وحيد عصره وفخر مصره، السيد الأمير، والأستاذ العلامة الشهير، أسكنه الله فسيح جناته، وعمره بعميم رحمته ورضوانه...
المرحوم رفاعة بك ابن بدوي ابن رافع الطهطاوي، الشريف الحسيب النسيب -أبو العزم – وهي كنيته التي كناه بها أبو الأنوار السادات...- نقب الأشراف-
(كأنَّ عليه من شمسِ الضُّحى** نوراً، ومنْ فَلَق الصبَّاح عمودا
ما فيه إلا سيد من سيد** حاز المكارم والتقى والجودا)

** ** **

المحتويات

تصدير.....2
الفصل الأول.....3
-1- رحلة الألف ميل.....3
-2- الخال 13
-3- كريمة 16
-4-المنفيِّ.....18
الفصل الثاني.....21
-1- الشيخ المُعلم.....21
-2- التلميذ المُريد.....28
-3- مذاق العلم 38
الفصل الثالث.....47
-1- وجهان لعملة واحدة.....47
-2-الخيانة.....49
الفصل الرابع.....54
-1- بلاد النور.....54
-2-لاترويت.....59
-3-مرسيليا.....62
الفصل الخامس.....72
-1- السودان.....72
-2- اسمًا بلا جسد.....77
الفصل السادس.....82
1- نبض الرسائل.....82
الفصل السابع.....88
1- عجائب بلاد أفرنجستان.....88
الفصل الثامن.....100

-1- رجل الأقدار.....100
-2- الألسن.....103
الفصل التاسع.....109
-1- طريق واحد للعودة.....109
-2- العهد السعيد.....115
الفصل العاشر.....120
-1- قاهرة الإسماعيليّ.....120
-2- ستائر الأيام.....124
الفصل الحادي عشر.....129
-1- بداية خلود.....129
-2- مداد من ورق.....131
حِليُة الزَّمَنِ.....134
ختام.....134